



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

نونة الشعنونة

سلوى بكر

مختارات فصول
سلسلة ادبية شهرية
قصص
العـــدد (١٣١)

الغلاف للفنان

يوسف شاكر

مختارات فصول ـ مختارات فصول ـ مختارات فصول

سلوى بكر

نونة الشعنونة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٩

نــونة الشــعنونة

ماعدا أبيها وأخوتها ، والضابط ، وزوجته وابنه ، لم يعرف نونة ، عند سؤال النيابة ، سوى أربعة لا غير ، حسنين بائع الخبز ، وفتيح البقال ، والكواء سالم ، ثم الزبال ، الذى اكتشف ، عند استجوابه أنه لا يعرف ملامحها أبدا ، لأنه ـ على حد قوله ـ كان مشغولا دوما بالنظر الى صفيحة الزبالة ، لما كانت تناوله اياها ، لافراغها فى قفته كل صباح ٠

ولقد تضاربت أقوال الجميع فى مسألة ملامحها ، فبينما أكد الضابط أنها ذات أنف أفطس ، وفكها العلوى بارز الى الأمام قليلا ، أجابت زوجته النيابة ، متسـاءلة : وهل كانت لها ملامح ؟! ، وأضافت : « كانت بنت شعنونة جدا ، وغريبة الأطوار » ٠ أما أبوها ، فاكتفى بأن قال ، وهو يجفف دموعه : « كانت عروسة كالفلة ، وبنت ولا كل البنات » ، وليثبت للحكومة صدق قوله ، أخرج من الجيب الداخلى لجلبابه قرطا ذهبيا صغيرا ، له خرزة زرقاء ، كان كامل المهر المقدم من العريس ، الذى لم تره أبدا ٠

حتى نونة نفسها ، لم تكن تعرف ملامحها جيدا ، أكثر مما تعرف أن لابن الضابط شعرا أسود جميلا ، كشـعر أمه ، وأنفا ضخما يشابه أنف أبيه ، ما عدا أن أنف الأخير ، تتناثر عليه نقاط سوداء صغيرة ، لحظتها مرارا ، كلما انفعل فزمه وضمه ، وهو

يهتف بصوت ميت ومخنوق من الضحك ، لصاحبه الذى يلاعبه الشطرنج : « كش ملك » ٠

وعلى أية حال ، فالبنت نونة ، لم تكن تشـــغلها مســألة شكلها ، الذى كانت تراه منعكسا عى صفحات المرايا كثيرا ، سواء فى حجرة نوم الضابط وزوجته ، أو فى حجرة الولد ، ابنهما ، عندما تدخل الحجرتين لتنظيفهما ، وترتيبهما ، على وجه السرعة ، حتى لا يروح الوقت ، وتنقضى ساعات المدرسة ٠ لكنها كانت تختطف لحظات سريعة تبحث فيها ، من جديد ، عن « انسان العين » ، الذى لم تصدق أبدا وجوده ، مع أن المعلمة أكدت ذلك ، مرارا ، وتكرارا ، وككل مرة ، كانت تقف على أطراف أصابع قدميها ، وتشرئب بقامتها القصيرة ، وتقترب من المرآة قدر مستطاعها ، ثم تجذب جفنيها السفليين بأناملها المتورمة ، التى لا تخلو من آثار حروق ، وجروح بســـيطة ، فتبرز مقلتاها ، دائرتان سوداوان ، حائرتان بالدهشة ، بينما تجوس بحثا فيهما ، عن ذراعين ، أو قدمين ، أو أنف ، أو رقبة ، أو أية أجزاء انسانية يمكن أن تكون انسان العين . وعندما تمل وتتعب ، وتشعر أن أطراف ساقيها أخذت تؤلمها من جراء هذا الوضع ، كانت تهبط على كامل قدميها ، وتزم شفتيها بغيظ ، مالئة فمها بزفير صوتها ، أو تخرج لسانها فى الهواء ، وتحركه حركات دائرية متلاحقة ، لتعود بعد ذلك مسرعة فتبدأ بترتيب الأسرة ، وتعليق الملابس ، ووضع الأشياء فى أماكنها المطلوبة ٠

ولا يمكن انكار ، أن البنت نونة كانت تعتريها رغبة خفية بأن تكون حلوة ، وزينة ٠ ليس كزوجة الضابط ، التى تحوز من الثياب أشكالا وألوانا ، شيئا قصيرا ، وشيئا طويلا ، وشيئا بأكمام ، وشيئا بلا أكمام ، ولكن حلوة كالمعلمة ، التى كانت تتخيلها فى

صورة ست الحسن والجمال ، كلما تناهى اليها · حيث تقف فى المطبخ ، وراء الشباك ، صوتها الجميل ، وهى تطلب من البنات الترديد وراءها « أيطلا ظبى وساقا نعامة » .

وكانت « أيطلا » تحير نونة جدا فعندما تأخذ فى ترديدها مع البنات ، وتستمع لوقع صوتها الحاد المنفرد ، يرسم « أيطلا ظبى » ، تتوقف قليلا ، عن دعك الصحن الذى تغسله فى الحوض ، أو عن تحريك الطبيخ ، فى وعائه ، على الموقد ، ثم تريح ساقها اليمنى على اليسرى قليلا ، وتأخذ فى مص ابهامها بتلذذ ، وهى تفكر فى حقيقة أيطلا هذا ، مسائلة نفسها : هل هو برسيم ، أم حلاوة حمصية ، أم حمار حصاوى ؟!

وتتدافع الصور فى مخيلتها بحثا عن الحقيقة ، وعندما تعييها الأسئلة ، وتكتشف أن سرسوف الماء قد انساب فى الحوض كثيرا ، أو أن الطبيخ غلى بما يكفى ، تعاود عملها ، بينما يفجر الغيظ والحيرة ، قوة هائلة فى جسدها ، فتأخذ فى دعك الصحون وفركها ، حتى تبدو لامعة براقة ، أو تعيد رص الملاعق والشـــوكات ، فى مواضعها ، على نحو أكثر انتظاما ، بينما تنغم الكلمات : ساقا ·· سا ·· قا ·· ناعاماتن ، وهى تنظر من الشـــباك المسيج أمامها بأسياخ حديدية ، يبدو من خلالها مبنى المدرسة المقابل ، والسماء الزرقاء المفتوحة ، تظلله ، تتصاعد اليها أصوات البنات فى صوت متحد قوى ، فتشعر بأنها على وشك الجنون ، وتصيح بأعلى ما تملك حنجرتها من قوة معهن :

ـ وارخاء سرحان وتقريب تتفل ·

وكانت تتوق لمعرفة أسرار أشياء أخرى كثيرة ، تسمع بها من هذه الدنيا السحرية المخبوءة عنها وراء الشباك ، مثلما تتوق لمعرفة حقيقة « أيطلا » ، تلك الدنيا التى تغزوها من مدرسة البنات ، بين

الحين والحين ، فتجعلها تحفظ عن ظهر قلب كلاما غريبا لا تفهمه ، جعلها تتمنى أن تجد من يبرد نار قلبها ، ويشرح لها معانيه . والحقيقة أنها حاولت معرفة معنى هذا الكلام ، فسألت حسنين بائع الخبز عن « أيطلا » فغمز لها بعينه ، ورفع حاجبيه بخبث ، وحرك ابهامه حركة ذكرتها بنسوان البلد ، مما جعلها تشتمه ، وتلعن أباه ، وسافل سافلين جدوده ، لكنها خافت اعادة الكرة مع فتيح البقال بعد ذلك ، وقررت سؤال ابن الضابط ، لولا ما حدث يوم الجذر التربيعى ، الذى جعلها لا تعود الى التفكير بذلك أبدا . حتى انها ، عندما فاجأتها السيدة ، يوم كانت تقلب فى البصل ، وتتفرس فيه ، بحثا عن كبرتيت الأيدروجين ، الذى قالت المعلمة بوجوده فيه ، رفضت نونة بشدة اخبارها ، بحقيقة الأمر عندما سألتها مستغربة عما تفعله ، واكتفت بأن قالت لها انها تبحث عن شيء غريب في البصل ، مما جعل زوجة الضابط تقول ، بمناسبة هذا الموقف ، ومواقف أخرى عديدة ، ان نونة شعنونة ، وغريبة الأطوار ، وتصرفاتها غير طبيعية ، وتحديدا بعد ان رأتها تنط فى المطبخ ، وترفع ساقيها عاليا ، وتمدهما للأمام ، على النحو نفسه ، الذى رأت البنات يقمن به ، وهن يرتدين السراويل السوداء الطويلة ، فى فناء المدرسة الواسع ، لقد كانت السيدة تقول ذلك عن نونة ، وتضيف كلما جلست بين صديقاتها ، خلال الأمسيات ، فى صالونها الذهبى الذى تظن نونة أن عمدة بلدهم نفسه لا يمكن أن يكون قد رأى مثله أن البنت نونة حمارة شغل ، وبها قوة تهد جبل ، رغم أن عمرها لم يتجاوز ثلاث عشرة سنة ، وأنها لن تطردها من البيت أبدا ، رغم جنونها ، خصوصا وأن الشغالات شحت جدا هذه الأيام وبالكاد يمكن الحصول على واحدة منهن .

ومع أن هذا الرأى لم يرق لنونة أبدا ، ومع أن السيدة صفعتها مرة على وجهها ، بسبب شتمها للولد ابنها ، وقولها له

يا مغفل ، الا أنها لم تكره زوجة الضابط ، فهى تعرف ان الصفعة كانت غضبا عنها ، مثلما كان الشتم غضبا عن نونة ، فالولد كان يجلس فى الصالون اياه ، مع المدرس ، وأمه تجلس قبالتهما تفرقع اللبان ، وتحيك الصـــوف ، ونونة كانت داخلة ، تحمل صينية الشاى ، بينما المدرس يسأل الولد عن الجذر التربيعى للخمسة والعشرين ، والخائب ينكش أنفه بأصبعه وينظر الى أمه ببلاهة ، ولا يرد ، ولما كانت نونة قد سمعت الكثير من المعلمة عن الجذر التربيعى ، فلم تتمالك نفسها ، عندما أجاب الولد فجأة ببرود : ٤ ، وصاحت منفعلة ، كما تصيح المعلمة : « ٥ يا مغفل » ، مما جعل الصينية توشك على السقوط من يديها ، والمدرس يقهقه مبهوتا ، والولد يجرى نحوها محاولا ضربها ، الا أن آمه كانت أسبق الى ذلك ، حيث همت من مكانها ، خوفا على أكواب الكريستال من الكسر ، وصفعت نونة ، الصفعة الوحيدة ، التى تلقتها منها خلال سنوات اقامتها الثلاث فى هذا البيت ، ومع أن السيدة لم تكذب ، حين قالت للمدرس ان نونة لابد وان تكون سمعت ذلك من مدرسة البنات ، لأن الشباك فى الشباك ، فقد تعلمت نونة الا تتحدث فى هذه الأمور مع أحد ممن فى البيت أبدا ، حتى لا تفكر السيدة فى طردها ، وهى التى ترغب فى البقـاء ، الى الأبد ، حيث المدرسة والبنات ، والعالم الجميل الذى تسمع أصواته كل يوم ، من شباك المطبخ ، ولا تراه أبدا ، رغم اتقاد النار الحامية المشتعلة فى صدرها ، ليل نهار ، شوقا الى أمها وأخوتها ، ورغبة فى الجرى مع العيال ، فى الغيطان ، وتنسم رائحة الخضرة ، والصباح الندى ، وشوفة شمس الشموسة ، عندما تطلع كل صباح ، وسماع نداء أمها لها ، عندما تحرد وتغضب ويتغير خاطرها : « نعيمة » يانعومة « تعالى كلى ياكبدى .. يانور عين أمك » .

كانت تحب اسمها الحقيقي « نعيمة » ، مثلما تحب تدليلها بنعومة ، ولا تجد ظرفا فى اسم نونة ، الذى أطلقته عليها السيدة ، وناداها به الجميع ، منذ وصولها من البلد ، الى هذا البيت ، وحتى خروجها منه الى الأبد ، ذلك اليوم الذى لم يعرف أحد بعده أى شيء عن نونة ، وكانت حياتها قبله تسير على وتيرتها المعتادة ، فلقد صحت كعادتها مبكرة ، وابتاعت الخبز ، ثم جهزت الفطور للضابط وزوجته وابنه ، وناولت الصفيحة للزبال ، ودخلت المطبخ ، بعد أن ذهبوا جميعا ، الا ان كل شيء فى حياتها بدأ يتغير فى حوالى الرابعة ، لما دق الباب وكان القادم أبو سريع ، أباها ، الذى فجر قنبلته ، بعد السلام والمرحبا ، والغذاء والشاى ، وطمأنتها على أحوال أمها واخوتها واحدا واحدا ، والأخذ والعطاء فى الكلام ، اذ قال ، وهو يتفرس صدرها ، وجسدها ، ويبتسم مسرورا ، حتى برزت أسنانه السوداء ، انه سيأخذها معه هذه المرة ، لأنها ستتزوج ، وأراها القرط الذهبى ، الذى ابتاعه لها العريس ، العائد من بلاد الرسول ، يحمل من الفلوس ما يكفى لفرش حجرة بحالها ، فى بيت أمه ، ويزيد أيضـــا ٠ ساعتها طب قلب نونة عند كعبيها ، وأوشكت على البكاء ، فطلب منها أبو سريع ، وهو يبتسم ، لما رأى الدم يهرب من وجهها ، ويصبح لونها كلون اللفتة البيضاء ، ألا تخاف ، فهذا أمر يحدث لكل البنات ، ولا ضرر منه ، وطلب منها تحضير حالها ، لانهما سيسيران معا عند ، الصباح ، ثم قرر أن يفرحها أيضا بالخبر الذى أفرحه ، فأخبرها أن السيدة سوف تمنحها أجر شهر اضافى كحاوان ، وقطعتى قماش لم يدخل فيهما مقص من قبل ، وأن أختها الصغرى ستحل محلها فى الخدمة بمشيئة الكريم ٠

« ٠٠ وكل شيء كان طبيعيا فى هذه الليلة » ، هكذا قالت زوجة الضابط للنيابة ، ووافقها على ذلك زوجها وابنها ، وحتى

أبو سريع نفسه ، فلقد أعدت نونة العشاء ، وغسلت الصحون ، وقدمت الشاى للولد ، وهو يذاكر فى حجرته « ولم يكن بها أى شيء يثير الشكوك » ، هكذا أضافت ، وهو ما حدث بالفعل ، مثلما حدث ان نونة باتت الليلة على فراشها ، فى المطبخ ، دون أن يغفل لها جفن ، تحدق بالسقف المظلم ، وتنظر حينا صوب الشباك ، حيث يقف مبنى المدرسة شامخا خلفه ، وتبدو فوقه قطعة سماوية صافية ، ترقص فيها النجمات • كانت روحها تدق الهم وتطحنه ، لأنها لا تريد العودة للبلد مرة أخرى ، ولا ترغب العيش وسط الوســـاخة والبراغيث والناموس ، مثلما لا ترغب فى الزواج ، لتصبح ـ كأخواتها ـ مزروعة فى الغلب • وانسابت الدموع ، ليلتها ، من عينيها بحورا ، وهى ساهرة حتى طلع الفجر ، ورأت بعينيها لون السماء الأبيض ، وحديد الشباك الأسود ، لكنها عندما نادتها السيدة ، لتنهض ، وتذهب الى السوق لابتياع الخبز ، كان النعاس قد غلبها ، وراحت تحلم بالمدرسة والبنات ، وابن الضابط ، الذى كانت تصفعه ـ فى حلمها ـ صفعات قوية . لأنه لا يعرف الجذر التربيعى للخمسة والعشرين ، كما رأت أيطلا ، وكان شيئا جميلا جدا ، لم تعرف أكان انسيا أم جنيا ، فقد بدا ذا لون أبيض ، بياض ندف القطن ، له جناحان بألوان قوس قزح جميلة ، تعلقت بهما نونة ، فطـــار أيطلا بها بعيدا ، بعيدا ، عن المطبخ ، والبلد ، والناس ، حتى صارت فى السماء ، ورأت النجمات الذهبيات عن قرب ، بل وكادت أن تلامسها .

وذكر الذين رأوا نونة فى صباح ذلك اليوم ، أن وجهها كان يحمل تعبيرا غريبا ، هكذا قال الضابط وزوجته ، اللذان أكدا أن نظراتها لم تكن طبيعية أبدا ، عندما ناولته علبة السجائر ، وهو

يهم بالخروج ، وعندما طلبت منها السيدة أن تعدل منديل رأسها قبل أن تذهب لابتياع الخبز .

كانت زوجة الضابط تقول ، وهى تضحك كثيرا ، لصاحباتها ، بعد أن تحكى لهم قصة نونة ، وهى جالسة معهن فى الصـــالون الكبير : « ألم أقل لكن ·· كانت مجنونة ، وشعنونة جدا ·· لكن أختها ·· لا أقدر أن أحدد أمرها بعد » ··

الخصبة والجدبة

أوشكت الأم أن تحرك شفتيها بالسؤال .. غير أن لمعان الدموع فى عينى ابنتها أجابها بالنفى قبل أن تفعل ، فجاوبتها بدمعات أكثر منها انداحت على بشرة خديها المخملية الرائقة وهى تقول :

اذن .. لا فائدة يا نظرى .. لم تأت السحلية أيضا بالرجاء !!

قفزت الابنة من السرير النحاسى بعمدانه الطويلة الأربعة والمزدانة بستائر قصيرة من الدانتيلا الوردية الرقيقة والمنقوشة بصور أطفال صغار لهم أجنحة الملائكة .. ومالت لتخرج من تحته وعاء قديما مملوء بقطع المحوجة الصفراء وناولت أمها بعضا منها وهى تواسيها مهدئة .

ـ وحياة النبى لا تبكى .. هذا نصيب .. مسحت الأم أنفها بطرف جلبابها الأسود الطويل وراحت تقضم قضمة كبيرة من قطعة الحلوى وقالت :

ـ ناقصة عسل .

لم ترد الابنة وهى تقول لنفسها : وهل تصنع الحماة شيئا جيدا ، وآثرت تغيير الموضوع حتى لا تعطى أمها الفرصة للكلام عن أهل زوجها ‥ وراحت تحكى لأمها عن الجاموسة التى سيبتاعها زوجها ‥ وأنها مازالت عندهم فى الدار منذ ثلاثة أيام ‥ ولا شيء فيها معيب ‥ ولكنهم سينتظرون أسبوعا كاملا فربما تكون مريضة ‥ غير أن الأم المنكودة السارحة سألتها فجأة :

ـ أخشى ألا يكون زوجك الخائب قد فعلها كما يجب ‥ ولم يطلقها فى الوقت المناسب . تنهدت الابنة بضيق وحسرة ، وراحت تقص عليها كيف أنه فاجأها وهى عارية فى أحضانه بالسحلية التى اندفعت من عود الغاب الطويل حتى لامست رقبتها ، وكيف أنها ارتعبت فى تلك اللحظة حتى فقدت القدرة على النطق أو الصراخ ‥ وحكت لها عنه عندما راح يهدئها ويقرأ لها الصمدية ويكثر الذكر حتى ثابت الى رشدها وردت فيها الحياة ‥ ورغم ذلك ‥ فعندما صار القمر بدرا شعرت بثقل جسمها وآلام ظهرها وتدفق الدم منها كالمعتاد ‥ بينما كانت تحش البرسيم للبهيمة فى الغيط ، مصمصت شفتيها ‥ وتصعبت وهى تؤمن على حكايتها بأن ذلك أمر الله ولو شاء لأعطاها ما حرمها منه .

سهمت الأم وهى تتأمل ابنتها التى اكتسى وجهها فى تلك اللحظة بغلالة من الحزن العميق ، وراحت تفكر فى حالها ، لسوف يطلقها زوجها فى يوم ما لا محالة ، لن يتزوج عليها بالطبع ، فلا أبيض لديه ولا أسود يمكنه من اعالة امرأتين فى آن واحد .. والرجال كالماء فى الغربال ‥ وليس للزمن أمان ؟!!

قطعت عليها الابنة غيابها مع نفسها بضحكة مفتعلة وهي تقـول :

– زوجي رفض أن يعطى أخته الكلوب القديم ، ستطق من الغيـظ .

لم يكن هنـاك شيء بقادر على أن يخرج الأم من تفكيرها واحساسها بالمصيبة التي تعيشها ابنتها فلم تبادلها الكلام وقالت في اصرار هادئ متجاهلة ما قالته الابنة :

– غدا .. لسوف نذهب الى الحجر المرصود .. لم يبق لنا الا ذلـك .

انقبضت الابنة واعتراها الضيق .. فلقد جربت كل الأمور واتبعت عشرات الطرق ولكن بلا فائدة .. لقد زارت الأطبـاء والسحرة والمشايخ وسألت العجائز وكادت تموت من الرعب يوم السـحلية ..

ولكن ما نفع شيء في نزول الدم خمسة أيام كل شهر .. وما رددت جدران الدار صراخ طفل على مدى عام .. لقد زهقت وليكن ما يكون .. لو راح منها الرجل فلن تندم فما أخذت منه غير الشقاء بالنهار وقلة الراحة طوال الليل يوقظها وقتما شاء من أحلاها نومة ليضاجعها ويرضى مزاجه حتى لتشعر بأن عظامها ستتفتت في يوم ما .. ليته يذهب بعيدا عنها بسرعة لتستريح أو ليت الله يتذكره لتصبح هي سيدة الدار وسيدة نفسها .. أوليتها كانت زجاجا من البداية حتى لا تحمل كل تلك الهموم ..

تابعت أمها قولها مقاطعة ما يدور في داخل الابنة التي راحت تنظر بعيدا عبر النافذة الى حمامات محلقة في زرقة السـماء الصـافية .

ـ غدا ٠٠ ان شاء الله بعد أذان الفجر سنذهب سويا ٠٠ لا تخبرى أحدا بذلك ولا حتى زوجك .. واياك ان تحادثى أحدا طوال الطريق وسآتى أنا بالعيش والملح ٠

ـ ٢ ـ

فى فجر اليوم التالى ٠٠ بعدما استحمت الابنة متطهرة من فعل زوجها ليلة الأمس تسللت بعدما خرج للصلاة وأسرعت الخطو لتلقى أمها المنتظرة عند نهاية الحقول ٠٠ ودون ان تنفرج شفتاها المطبقتان بأدنى همسة ، سارتا متجاورتين ٠٠ ولا صـــوت الا وقع الخطى المختلط بأناشيد الصباح الجماعية التى تنشدها العصافير والديكة وجنادب الليل الساهرة .. وفكرت الأم كيف أنها طرحت عشرة بطون اختار الموت منها أربعة ٠٠ وازدهر بالحياة ذكران وأربع اناث ٠٠ ينجبون جميعا بمجرد اللمس كالفراشات ٠٠ ولكن تلك الصغيرة المسكينة لا تفعل .. زوجها يزعم أنه قادر على انجاب عشيرة بأكملها وأنه سليم معافى رغم انه لم يذهب الى شيخ أو طبيب .. ربما كان معيبا ، ستحاول اجباره على أن يذهب الى الطبيب .. ستلمح له بأن ابنتها على ما يرام .. وبرأها الأطباء .. سيجن ويغضب ولكنه سيضطر فى النهاية ٠٠ ولم لا ؟

كانت المرأتان قد اجتازتا الحقول ٠٠ وصارتا عند طرف القرية البعيد على مشارف الجبانة ٠٠ توردت وجنتا الأم بفعل المسير وهواء الفجر الريفى ٠٠ بينما راحت ابنتها متلاحقة الأنفاس وهى تسرع الخطى لتواكب حركة أمها النشيطة كادت أن تنطق طالبة منها الابطاء قليلا ريثما تستريح ولكنها تذكرت ضرورة الصمت طوال الطريق وضرورة عودتها قبل عودة زوجها من صلاته بالجامع ٠٠ ضغطت على أسنانها وتجلدت وواصلت المسير وتأملت أمها

الكبيرة الجدة وهى تسير كبطة سمينة بضة ودعت لها بطول العمر ·· فلولاها ما عرفت كيف تسير الحياة ولما استطاعت ان تواجه أهل زوجها طوال تلك المدة ·· كان من الممكن أن يأكلوها حية ·· أو يمزقوها ويلقوا بها للكلاب ·· يالها من أم ·· حنانها لا يعوض ·· أجل لا يعوض ·

ـ ٣ ـ

الحجر المرصود ·· صلد · بنى ·· صغير فى حجم دجاجة ·· يبرز من الأرض وحيدا وسط الجبانة ·· ولا أحد يدرى من أين تنبت الحشائش الغريبة حوله ، ومن أين تستقى ماء حياتها ·· وعلى سطحه حفرت بقايا نقوش غريبة لطيور وحيوانات ومفاتيح كمفتاح دوار العمدة الحديدى الكبير ·· بعضهم يزعم أنه كبير ضخم ممتد حتى جوف الأرض··وماأتته عاقر بعيشها وملحها الا عادت الى مكانها خصبة ولودا ·· كان صمت الجبانة المخيف والشـــواهد الكثيرة المتراصة المتقاربة كبيوت القرية الطينية قد أحكم الشعور بالوحشة فى صدر الابنة وزاد من شعورها بالانقباض فخافت وودت أن تعدو راجعة غير أن أمها كانت قد سبقتها ووقفت أمام الحجر حتى لامســـته فصاحت الابنة فجأة من خلفها حتى شهقت الأم رعبـــا :

ـ نسينا العيش والملح ·

ضربت الأم صدرها آسفة على النسيان ووقفت مذهولة غير ان الابنة لم تمهلها وأردفت ·

ـ علينا أن نعود بسرعة قبل أن يرجع زوجى الى الدار .

بدأت رحلة العودة مرة أخرى .. وأسرعت الابنة الخطى الى الدار وشعرت هذه المرة أنها خفيفة خفة من تحرر من حمل ثقيل .. وفكرت فى ضرورة أن تعزل الدجاجة السوداء وحدها فى الدار و تظل ترقبها حتى تبيض ولا تتمكن من التهام بيضتها .. ولمعت عيناها بالغضب وأقسمت انها ستذبحها لو عادت وفعلتها مرة أخرى تلك اللئيمة ، بينما أكدت الأم فى حسرة واصرار قائلة :

ــ قسمتنا .. ولكن سنذهب ان شاء الله بعد حيضك القادم .. الحجر لا يخيب رجاء .

ــ ٤ ــ

بعد شهرين .. ألقت الأم بنفسها على سرير ابنتها متوجعة .. بينما جلست الابنة أمامها وقد اتسعت عيناها بالدهشة وكادت أنفاسها تتوقف من فرط الانفعال والمفاجأة وراحت تضرب صدرها وصوتها يخرج مبحوحا :

ــ ياحوستى .. فى هذه السن وحبلى .. كانت تلتهمها مشاعر متضاربة من الغيرة والحسد والغضب والسرور ، بينما أمها لا تقوى على الكلام من الخجل والشعور بالعار .. وفكرت ماذا تقول لأهل القرية وهى الجدة الوقور ذات الشعر الأبيض كندف القطن .. والتى ما من مشورة تطلب الا وافتت فيها .. وما من خلاف نشب الا وفضته .

انداحت على خدها دمعه فبدت كما لو كانت آثمة فى سن العشرين .. واستها الابنة فى حنان وهمست لها وهى تقبلها :

ــ مبروك ..

تمتمت الأم وهى تتحسس بطنها فى حركة رغما عنها :

ــ عقبالك ان شاء الله .

امرأة على العشب

١ ـ المرأة والولد والكلب

من وسط القبور ، حيث يسكن الأحياء فوق الموتى ، جاءت المرأة أم الولد صاحب الكلب ٠

كانت تحمل طبق الصاج الأبيض صدىء الحواف ، مملوء بحبات الترمس الصفراء ، وترمى ببصرها على اتساع المكان لتختار بقعة معشوشبة تقبلها مستقرا ٠٠ كأفضل ما يكون الموقع لمرأى الشارين ، والولد ، ابنها ينتعل بقايا حذاء يسع قدما أخرى بجانب كل من قدميه ، وراح يتابع سربا من النمل فى موكب جنائزى لجعران صغير ، أما ثالثهم ، كلبهم ، فاقد مد رأسه الى أعلى يتشمم الهواء ، ويسدد بصره محتجا على حدأة محلقة فى السماء ، تحمل بين مخالبها طيرا صغيرا ٠

جلست المرأة على رقعة مرتفعة ، أسفل شجرة كست الأرض بأوراقها الخريفية المتساقطة ، وهمست لحالها بعد ان نفذت حتى عظامها هبة ريح باردة :

تباشير شتاء ٠

٢ ـ المخبر القديم مهموم بالشغل

من الناحية الأخرى للطريق ، الذى يفصل مدينة الاحياء عن مدينة الموتى ، أتى المخبر القديم يتهادى على العشب ، واضعا يده فى جيبه حينا ، بارما شاربه حينا آخر ، وهو لا يرفع عينيه عن الأرض ، بينما ينفخ نفخات طويلة من منخريه فى غيظ ، كان يفكر محتارا : من أين يأتى للضابط بخمس قضايا فى ثلاثة أيام ، « خمس قطع فى ثلاثة أيام ؟ » ـ رددت روحه فى غل ـ اثنين دعارة وواحدة تسول والبقية متنوعة ؟ وقال لنفسه أيضا : « أى هرمة انجبت مثل ذلك الوغد ؟! أأدخل يدى فى الجراب لأخرج منه قضايا ؟!! أيريد أن يحصل على نجمة جديدة تلمع على كتفيه بأى ثمن ؟ وعلى حسابى أنا ؟ » . بصق بصقة طويلة داسها بحذائه الغليظ ، وراح يعمل فكره متابعا : التسول والمتنوعة ، سيحل أمرها باذن الله ، فاليوم أو غد لابد وأن تنشب خناقة فى مكان ما .. ربما بين لاعبى القمار فى قهوة الاسيوطى أو بين المساطيل فى غرزة السمالوطى .. وأكد على ذاته بضرورة الذهاب الى هناك ، عندما يغطس المساء ، وكذلك المرور على خمارة الشوام ، فالأمر لن يخلو من شئ .

وقال المخبر القديم لنفسه أيضا : « يعرف ابن اللئيمة أن الدعارة شحت هذه الأيام فى الدراسة ، شح الورق الأخضر ، وبصق مرة أخرى لاعنا بنات الدراسة ، اللواتى هاجرن للعجوزة والمهندسين ، والخواجات ، والعرب والشقق المفروشة » .

هبت الريح ، فرفع ياقة معطفه الخشن حتى لامست أطرافها أذنيه ، ودس يده فى جيبه باحثا عن الفص ، وعندما شعر بخشخشة ورق السلوفان بين أصابعه .. سار .

٣ ـ المخبر القديم يسامر المرأة أم الولد

عندما اقترب من مجلسها على العشب ، همس بارتياح من وجد « لقية » ، وألقى عليها تحية المساء ، فبشت فى وجهه على حـــذر ٠

عندها ٠٠ كانت الشمس تنسحب راحلة فى الأفق ، تاركة بقية من نورها وحيدا يحيل الكائنات الى أشباح منذرا ببدايات المساء ، صرخ النبض بعروق الجالسة على العشب معلنا الخطر ٠٠ كان ذلك واضحا فى نبرات صوتها عندما ردت على المخبر تحية المساء . لف المخبر القديم سيجارته فى تؤدة ، بعد أن مزق الفص بأسنانه قطعا صغيرة ، وخلطها بتبغ السيجارة ، وراح يشـــعلها ويتابع ببصره سريان اللهب بعوده المشتعل بين أصابعه حتى انطفأ فرماه ٠

لقد امتص أنفاسها طويلة وزعها بين صدره وحلقه ، وردها من منخريه فى الفراغ الفسيح ، وهتف وهو يناولها لها : مساء الخير ٠

زاد الخوف أكثر فى قلب المرأة أم الولد ، وهى تســحب أنفاسا صغيرة ، متقطعة من بين شفتيها الرفيعتين ، وقالت لحالها : « هل يأتى مثل هذا الرجل بالخير ؟ » ٠ كان الدخان قد أخذ يشحن روحها ، ففتحت عينيها عن آخرهما ، حتى تقاربت المقل السوداء أكثر مما كانت عليه ، وبدت عظمة انفهـــا الكبيرة كجدار فاصل بينهما ، أما المخبر القديم فقال لنفسه أيضا : « آه لو لم تكن حولاء ٠٠ صفراء ٠٠ لكنت سددت بها الدعارة ٠٠ ولكن هذه اللبوة ٠٠ لماذا لا تسمن قليلا ، لا يمكن ان تصلح بحالتها هذه للدعارة ، فلن

يقتنع بها ذاك الجالس على مكتبه هناك ، فهى لا تسعف ملهوفا ولا تروى عطشانا ، ليكن .. تسول وأمرى الى الله » .

أما هى فقد تشاغلت بالجرى وراء ورقة صفراء ، ملقاة على العشب الناحل ، جذبها الهواء بعيدا ، وعادت لتصنع منها قرطاسا جديدا ، ضمته لقراطيسها الأخرى ، وفكرت ثانية وهى تقول لحالها :

ـ آه لو كان لى رجل مثل هذا « الصول » .. يعود بالراتب فى طلعة كل شهر ، وأخلف له من العيال تسعة ، يطلع فيهم التاجر والسباك والنيشانجى ، وأظل معه مثلما النساء بالبيوت .. أحادث الجارات كل صباح ، وأطبخ عند الظهر وأبيت على فراش مريح فى المساء .

وقالت لروحها أيضا ..

ـ ولكننى أعرف لماذا يأتى الآن ابن اللئيمة هذا .. لسوف أريه فى هذه المرة من أكون .

أما هو ـ المخبر القديم ـ فغمغم متحدثا اليها بالشكوى من بين أضراسه ، وراح يسترد منها السيجارة التى قارب نصفها على الانتهاء وهو يقول :

الدنيا انقلب حالها يا أختى هذه الأيام ، أقول لك انقلاب حالها ، والعوض على الله ، الغلاء فى الطالع .. والمضروب الجالس أمام مكتبه فى القسم ، يظن أننى قادر على شق الأرض لتخرج

بطيخا . وأننى أستطيع قطف النجمة ، التى يريدها على كتفه ، من السماء ٠

وقال أيضـــا ٠

ـ أيتصور ذلك المجنون أننى أستطيع الاقتراب من شحاذى الحسين ؟ والله لا يمكن ان أفعل ذلك ، طالما هم يدفعون بانتظام وبقدر معقول ٠٠ لست نذلا يا أختى ٠ لا يمكن أن أفعل ذلك ٠ أنهى كلامه ، وبعدها سحب النفس الأخير من الســـيجارة ، التى كانت قد انتهت وانطفأت وراح ينظر اليها عله يستشف ملامح موقف لها ، ولكن المقل السود التى تصب دائما بنفس الاتجاه ، وضعت بينه وبين ما يدور بداخلها حائلا سميكا ، فاغتاظ وراح يحك أنفه ٠

أخيرا همست أم الولد فى رزانة تاجرة :

ـ اسمع ٠٠ ربما توفق فى مرادك ٠٠

قاطعها بكاء الصغير المغتاظ من مذاق الطين الطرى ، الذى حشابه شدقيه ولم يرقه ، فأخذ يلفظه مختلطا بلعابه ، فأخذت تضــحك حتى مالت على ظهرهــا ، وناولته بضــع حبـات ترمس قائلة :

ـ يا ابن الايه !!!

عندئذ . . مد المخبر القديم يده الى جيبه ، وأخرج قطعة النوجه وألقى بها للولد حتى يسكت ٠

فقالت هى والدموع تفر من عينيها من فرط الضحك :

ـ خير ان شاء الله !!

ـ خير يا أختى ٠

رد المخبر بعد ان افتعل ابتسامة على شفتيه وأضاف :

ـ لو جئت هذه المرة سآتيك بالعشاء بنفسى ٠٠ وستكونين آخر تمام ٠٠ هذه المرة ٠٠ ليلة واحدة فقط ٠٠ تخرجين بعدها لعدم ثبوت الأدلة ، وكما فى المرة السابقة سيكون حسابنا ٠٠ ولكن العشاء ٠٠ سآتيك به ٠ وفى حجرها ألقى بنصف الجنيه ٠

أما هى فكانت قد حسبت حسبتها ٠٠ فلن يضحك عليها هذه النوبة أبدا ، وهى لن تتنازل عن قمطة حمراء « بالترتر » ورغيف لحم من « المسمط » وهذا يكلف جنيها وربع ، وخمسون قرشا فى يدها لعوادى الزمان ٠٠ لن تتنازل عن الخمسين فى يدها مهما حاول ٠٠ حتى لو أخذها بالقوة ٠ هكذا كان كلامها مع نفسها ٠ أما معه فكان الكلام :

ـ صلى على النبى يا حضرة الصول ، المرة الأولى ظلمتنى ٠٠ أى والله ظلمتنى ، وأنا لم أعد أطيق ٠٠ والغلاء صار على الجميع ، ما ينفع هذه النوبة الا الجنيهان الا ربع ٠٠ هذا بالعدل والحلال ٠ اتصدق وتؤمن بالله ٠٠ النوبة الماضية رجعت من التخشيبة وعظمى يكاد يتكسر من نوم البلاط .. لن أستطيع هذه النوبة الا بالجنيهان الا ربع وغلاوة ابنى ٠٠

سعل المخبر وزام ، ووضع ساقا على ساق ، ونظر الى حبات الترمس والمرأة والولد والكلب ، وتمنى لو أشعل نارا هائلة وألقى

بهم جميعا فيها ، وجاء بالضابط ووضعه فوقهم ، قطب جبينه وسدد للمرأة نظرات نافذة وقال :

ـ صرت ماكرة يا أم محمد ·· والله صرت ماكرة ، وملأ الطمع قلبك ·· لقد قلت لك سآتيك بالعشاء ·· والله سآتيك بالعشـــاء ··

أطرقت للأرض ومسحت أنفها بطرف طرحتها وسكتت قليلا ثم أردفت بهدوء :

ـ يفتح الله يا حضرة الصول ·

ضحك الولد فى سعادة وهو يمتطى الكلب ، ويشده من ذيله ، وراح يصيح على أمه لتراه فى هذا الوضع ، أما المخبر فقام من مكانه ومد يده الى جيبه ، واخرج الجنيه ، وأمسك بيد المرأة ووضعه فيها وأطبق عليها جيدا · وهو يقول :

ـ غدا نلتقى فى المساء ·

نظرت المرأة الى ورقة النقد التى بيدها وعندما اطمأنت أنها جنيه كامل همست وهى تبتسم :

ـ لا تنس احضار رغيف من المسمط معك !!

الـــزمن الجميـــل

أقاوم النوم ، وأقاوم الصحو أيضا ، لا أريد أن أستمر فى الحالة الأولى ، ولكن ما الذى يشجع على العودة مرة أخرى ، لهذا الجنون ، وتلك الغرابة المحيطة بى ، والتى على ابتلاعها ٠٠ كل يوم ٠٠ كل يوم ، لمجرد أنى لست نائمة ؟ ، ثم ان هذا الصباح ، هو صباح أول أيام العيد الصغير ، وهذا معناه ، أنى لن أذهب الى عملى فى ميدان التحرير ، وسأستريح لمدة ثلاثة أيام من مصائب المواصلات ، ورائحة أنفاس « الكمسارى » المشبعة ببخار البصل والفول ، ولن أرى مبنى « الأنتكخانة » الوسخ ، وخازوق المدينة المســـمى بالبرج ، واعلان « شويبس » ، وأشياء أخرى ، كثيرة ومجنونة ٠ كدت أصفق بيدى وأهتف : « يالها من لذة ٠٠ ما أجمل العيد » ، لكن همس أمى المختلط بصراخ أبناء أختى ، الصغار ، كان أسرع من حركتى وأنا أحـــاول التقاب وفرد ســـاقى الى أبعد حدودهما ٠

قالت بصوتها المقهور المستجير دوما :

ــ سليم عندنا وغرضه يشوفك ٠

ــ آه ٠٠ سليم !!

قلت دون شعور بوقع صوتى ، وأغمضت عينى المفتوحتين قليلا ، وأنا أتلمس غيبوبة ، تساعدنى على ألا أفيق .

- ٢ -

فى السكة للحلم ، لاحقتنى ، رائحة الشاى بالحليب ، مختلطة ، بألوان زهور البازلاء الشفيفة ، « البمبى » بلون كعبى جدتى أم حسن ، والبنفسجى ، ثم الأحمر الشفقى ، ونوار اللارنج الأبيض ، الذى كنت أظنه زمان ، عصافير مسحورة ، ستنتفض وتطير عندما يأتى الربيع وسليم على الدراجة ، أجلس أمامه وأرن جرسها المكور الكبير ، نمر أمام بوابة قصر « البرنس » ، ومن خلال فتحات حديدها المضفور يبهرنى مهرجان اللون ، فى الحديقة الممتدة ، بعد أن نعبر على بحور البرسيم الخضراء ، وحبات الندى مازالت تتأرجح على أوراقها ، أستدير ، أمسكه من ذقنه الخشنة ، وأنظر للمدى وأقول له :

ـ سليم ـ هات لى وردة حمراء من عند البرنس

ـ لما نرجع .

وحياتك يا سليم .

ـ لأ .. مستعجلين ، و « البوستة » لازم نلحقها قبل ما تقفل .

أصر .. أصرخ .. أفتعل البكاء ، حتى تتطاير دموعى ، وتسقط على كفيه الممسكتين بالمقود ، ويبرز شريط هلامى لزج من فتحتى أنفى . وأنا أضرب بقدمى على سيور الدراجة الرفيعة ، فيزفر بغيظ ، وهو يمسح أنفى بطرف جلبابه ، ويقسم ، بأنه لن

يأخذنى معه فى أى مشوار آخر بعد الآن ، مهما توسلت اليه ، بينما يتوقف وينزل وينزلنى معه ، ويدلف الى البوابة والكلاب المخيفة المربوطة فى الأشجار العالية ، تنبح عليه ، وينادى على عم حسين البواب ، وعندما يراه ، يبتسم ويقول له :

ـ وحياتك يا عم حسين ٠٠ صحبة ورد حلوة لنوسة ٠

ـ ٣ ـ

تململت ، وحركت يدى ، متحسسة رقبتى ، اصطدم الخاتم ذو الكرة الزجاجية التى تعكس ألوان الطيف ، والمثبت بخنصرى ، بتميمة سلسلة صدرى الفضية ، فتصاعد صوت سحرى قديم من قاع الذاكرة ، واختلط برنين ملاعق الشاى ، اللاهثة فى الاقداح الصينية ، الذى تناهى الى أذنى ، من الردهة حيث كانت أمى تجلس مع سليم ، ثم علا ايقاع مشترك ، ملأ رأسى وروحى كلها ، تجسدت تهويماته فى الرنين المرح ، لجلاجل حصان ابن العمدة النحاسية البراقة ، وخلاخيل « نافلة » الفضية ، المزينة لعرقوبيها وزنديها ، والقرط ذو الخرزة الزرقاء المتدلى من أنفها ٠

وفجأة جاءتنى صورة « نافلة » كاملة ٠٠ « نافلة » غريمتى ٠٠ « نافلة » التى عذبتنى ، عذاب الروح الأول ، « نافلة » التى كنت أغار منها تلك الغيرة ، التى كانت تجعل صدرى يعلو ويهبط وأنفاسى تتلاحق وتختنق ، وأرغب فى الموت فعلا ، « نافلة » الضفائر الحريرية السوداء ، والشعر المفروق من الوسط ، والمزين بقلائد الخرز الزاهية ، وقماطها الأحمر الدامى يطوق الخصر ٠

ـ سليم ٠٠ طالع للسوق وحدك ؟

ـ لأ ·· تعالى نروح « لنافلة » ، النعجة ولدت ، ونسأل عن الكبش ·

جدك ناوى يفدى فى العيد ·· تعالى ··

يقول ، وانا أقول : « نسميه سعيد ، نسمى الكبش سعيد ·· ويكون لونه أسود ·· ورأسه أبيض » ·

ونذهب اليها ، حيث تخرج لنا من الخيمة ، والغنمات تثغو حولها ، بينما الشـــاى يغلى ، على وقدة الخشب ، وهى تصبه ، وترنو الى سليم ، بنظرات ترتعش لها أهدابه ، ويتحرك فكه معها ، وتلتمع حبات عرق خفيفة تستقر بملتقى عقفة حاجبيه ، بينما قلبى يدق فى خوف غريب ، وعندما تمد يدها له بكأس الشاى ، يتملكنى شعور خفى ، بأن أنتزعه منها وأقدمه له ، أو آخذه وأجرى بعيدا .. بعيدا عن « نافلة » ، ولما تجلس أمامه ، تطحن الشعير بين حجرى « الرحاية » الثقيلين ، وتهمس مبتسمة ، كاشفة عن أسنانها الوضاءة قائلة « كيفك يا سليم » ، أقترب منه .. وأفرد له ذراعى وأقبله فى كتفه ، وأقول :

ـ شيلنى يا سليم ·

وفى الدار ، بعد أن نعود ، تسألنى أمى عن حال « نافلة » ·· فأجيبها فى حنق :

ـ « نافلة » دمها ثقيل ·

الأغانى سخيفة ، وتفتعل البهجة ، لماذا لا يذيعون طيلة اليوم ، « مصر التى فى خاطرى » ، أو « أمانة عليك أمانة يا مسافر بور سعيد » ، و « راديو بلدنا يذيع اخبار » ، لماذا يطاردوننا ويتعقبوننا حتى ونحن فى الأسرة ، ويحاصروننا بتلك السخافات المسماة أغنيات ؟ ، كنت أهمس لنفسى بذلك ، وأحاول النهوض ضاربة اللحاف بقدمى ، بينما اتمطى فى تلذذ ، ولكن هذه الأنوار الكثيرة ، تهاجمنى هى أيضا ، تتلألأ فى رأسى الثقيل ، وعينى المغلقتين ٠٠ رائعة ، مبهرة ، ألوان حبات « براغيث الست » السكرية ، ورائحة عطرها الثقيل النفاذ ، وأعلام المملكة باللون الأخضر والنجوم البيضاء الثلاثة ، يحتضنها الهلال ، تتناثر فى فوضى على الحبال المعلقة بالحوارى والأزقة .

تريد أمى فى « الانجر » المجلى لتوه عند مبيض النحاس ، تكلله قطع اللحم المسلوق ٠٠ لحم سعيد المذبوح ، سعيد الذى أحببته حبا كثيرا ، كان ينظر الى كلما قبلته بحزن ٠٠ بكيته بحرقة ، عندما طالعته صريعا يفور دمه على الأرض ، دمه الذى غمست فيه كفى مرارا ورسمتهما على الحوائط الطينية لغرفة الذبيح ، بينما تتشهد أمى ، ويتشهد خالى ٠٠ وأقول وراءهما بعد ذلك مع أخوتى كلهم ٠٠ لا حول ولا قوة الا بالله ، و ٠٠ ألف ألف صلاة على النبى ، وسليم معه نصف الريال الفضى المحلى بصورة مليكنا المفدى ، حتى يشترى « الجاز » للقناديل ولفة الشمع للمقام ، وأمى تمسح أنفى جيدا بالمنديل قبل الذهاب وتقول ٠

— أوعى البنت ياسليم ٠٠ اياك تأكل حاجة وسخة ، واياك « السوبيا » والنبى ٠

وندور ســـويا فى الزحام ·· حارات وأزقة ·· ورجال ونسوان وعيال ، فى ملابس جديدة ملونة ، وزمامير وطراطير ، وترمس وحمص ، وبليلة سخنة وأقماع سكر وجلاب ، وقبل أن نصل الى المقام ، حيث الحصــــير على الأرض والعمة الحريرية الخضراء ، تعلو التابوت الضخم،ألمح بائع السوبيا،وأباريقه الزجاجية الزرقاء ، مصطفة على حافة العربة ، تبرز من خلالها الأطراف الطويلة المعقوفة ، فأدب على الأرض بقدمى ، وأشد سليم من طرف جلبابه البنى ، وأقترب منه حتى ألامسه وأصرخ :

ـ سوبيا يا سليم ·· أشرب سوبيا ياسليم ··

ـ لأ ·· أمك وصيتها لأ ·· ممنوع ·

أهدده بأن أجلس على الأرض ، حتى يتسخ فستانى الجديد ، ويتلوث بالتراب ، أنتحب بصدق ·· وأشد الشريط الأحمر المعقود فى شعرى بغيظ ، وأتحسس يده فى رجاء ، فيذعن ويحن قلبه ويقـــول :

ـ طيب ·· بعد ما نزور المقام ·· ونقرأ الفاتحة ·

ـ لأ ·· الأول ياسليم ·· عطشانة موت ·· وحياة نوسة عندك ياسليم ·

وبينما ترطب حلقى ، قطرات السوبيا المثلجة ، التى ارتشفها من العنق الزجاجى للابريق .. أنظر اليه فى امتنان قائلة :

ـ أنا أحبك يا سليم ·

أولاد أختى الثلاثة ، اشتركوا فى اللعبة الوسخة ، التى بدأها الشارع بضجيجه ، وأعلنوا الحرب على الهدوء ، صياح وبمب وزمامير ، والمسدسات أيضا موجودة ، بكافة أنواعها .. مائية ، ومثيرة للدخان ، وأمى سعيدة جدا ، بهذا الهجوم الهكسوسى ، وتعبر عن فرحها بهذا القطيع الطفولى فى عبارات من نوع « اسكت يا مضروب ، أوعى تضيع فلوسك كلها على المراجيح ، اشرب اللبن الأول ، وانزل الشارع » . قمت للاغتسال ، وأمام المجلى أغمضت عينى قليلا ، لأتفادى حرقة فقاعات الصابون ، وبينما كنت أزيل الماء عن وجهى ، دق قلبى ، ترى ، كيف صار شكل سليم الآن ؟ ، منذ أكثر من عشرين عاما ، لم أره .. آخر مرة كانت ليلة زفافه لنافلة .. أول فجيعة للقلب أيام الزمن الجميل ، كنت يومها فى السابعة ، وهو .. لا أدرى عمره على وجه التحديد ، كان كبيرا .. وجميلا جدا فى عينى ، بل كان أجمل من أمى نفسها ، أغلى من روحى « هارون » ، بكل فروه الأصفر الجميل ، وشواربه اللطيفة . يومها غسلتنى أمى وعندما أخذت تجفف جسمى ، وتلبسنى الملابس النظيفة ، وتغنى « قلعتك حرز .. ولبستك اثنين ، ستنا فاطمة ، لبست الحسن والحسين ، حرز للنهار يانوسة ، وحرز لليل » . قبلتها وسألتها :

– أنت عاملة لى فستان جديد ليه ؟

– فرح سليم الليلة .

قالت ، مما جعلنى أنظر فى عينيها بدهشة وأهتف :

– أنا حتجوز سليم النهاردة ؟

ضحكت أمى ، ضحكة صافية مجلجلة ، رنت فى أنحاء الحمام ، وأخذت تقبلنى فى سعادة ، وأبى يطل برأسه من باب

الحمام الموارب متسائلا فى دهشة عن سبب الضحك وعلو الصوت ، وقالت :

ـ يارب أعيش واشوفك يا نوستى عروسة ، سليم ناوى يزف « نافلة » الليلة ٠

أما المســـاء ، فكان فى « المويلحة » حيث الأرض الفضاء الواسعة بطرف البلدة ، جمعت كل البيوت ، وكل الناس ، ورحت انا مع أمى وأبى وجدى وأخوالى ، واصطف العرب صفين ، ورقصوا بالخناجر ، وغنوا ، ورقصت « نافلة » ، هزت رأسهـا مطوحـة ضفائرها ، وحركت مؤخرتها ٠٠ كانت رائعة فى ضوء القمر ، وكان فى حلقى سد هائل من الآلام ، وغنى الرجال أغنيات سريعة لم أفهمها ، وجلجلت زغاريد نساء الفلاحين ، مع دقات البدو ، وسال دم خراف كثيرة ـ ذكرتنى بسعيد ـ تحت أقدام العروسين المخضبة بالحناء ، وكنت أنظر الى ذلك الاحتفال الغريب ، تتقاسمنى مشاعر الخوف والفرح ، وأحس ان سليما تغير ، وضاع منى ، سرقته « نافلة » الغادرة وكانت تتعالى الايقاعات فأبتهج ، وأحاول تحريك قدمى ، وهز مؤخرتى ، كما يفعل الجميع ، وتفعل « نافلة » ، وحاولت الاقتراب من سليم ، لأريه نفسى وأنا أرقص ، فكان يضحك ، ويمسح بيده على شعرى وهو مستمر فى الرقص ، وأمى تبتسم من بعيد أيضا ٠

ويمر الكروان منشدا فى السماء الصافية ٠٠ لك ٠٠ لك ٠٠ لك .. لك ، فيتهلل الجميع ويكبرون ، أما أنا فتمنيت أن يأخذنى الكروان بعيدا معه ، ولا يعرف سليم طريقى ، ويتعذب ويبكى ، ويبحث فى كل مكان عن نوسة حبيبة قلبه ، ونور عينيه ٠

وعند عودتنا للبيت ، بكيت ، واحتضنت هارون ، ورحت أشكو له سليما ولكن اللعين انشل عنى بمطاردة فراشة ، حومت حول المصباح ، وقفز خارجا وتركنى وحيدة لأنعس وتدور فى رأسى الصور ، « نافلة » بثوبها المطرز بالخيوط الحريرية الملونة ، ودم الخراف الحار وهو يرسم أشجارا حمراء موحشة بين أتربة « المولیحة » ، وأيادى الرجال والنساء والأولاد المخضبة به ، وهى تنطبع على الجدران الطينية ، وأمى تدس فى يد « نافلة » القرط الذهبى ، الذى ابتاعته كهدية لها ، وكانت آخر صورة رأيتها فى الحقيقة ، قبل أن أغيب فى النـوم ، الجناحين الذهبيين المفتوحين حتى النهاية ، والخرزة الزرقاء فى صدر الطائر ، وهى تكبر وتتضخم حتى ملأت كل عينى ، وعندما كبرت أكثر وذهبت الى المدرسة ، رأيت الصورة نفسها مرسـومة فى كتاب التاريخ ، وعرفت انه حوريس ‥ المخلص الحبيب حوريس ٠

– ٦ –

ـ سليم ‥ !؟

قلتها ، طويلة ٠ متسائلة ‥ تحمل الفرح والدهشة ، كادت أن تسقط من يده كأس الشاى ، فسارع بوضعه على الصينية ، واحتوانى بين ذراعيه ، وراح يربت على ظهرى ، شعرت بالدفء القديم فى رائحة الأرض المبللة بحبات المطر ونحن نجرى تحتها فى الشتاء ، عائدين الى البلد ، مثلما شعرت برائحة « حنون » البيض وهو خارج من الفرن ، وطقطقة أكواز الذرة ٠ المشوية فى الليل ٠

ـ سليم ‥ كده تنسانا !؟

قلت .. بعد هدوء العاصفة : دموع على خد أمى ، وارتعاش في أطراف سليم ، وحمرة خجل شعرت بها تلفح صفحة وجهى .

ــ كبرت يانوسة .. سبحان الله !!

تصعبت أمي وهى تمسح دموعها .. وقالت :

ــ الزمن !!

حكى ، وحكت أمي ، وأنا اتفرس وجهه ، ووجهها .. « سليم روح قلبى ونور عينى » . هكذا كنت أقول له وأناديه ، الآن صار وجها بجلد متراخ على العظم ، وشيبا يتلألأ بأضواء الفضة .. تذكرت ألف ليلة وليلة « الشيب نذير الموت » ، واكتشفت أن أمى صارت عجوزا أيضا ، تحسست وجهى بيدى ، رغما عنى ، وهو يحكى وأمى ترد بكلام سمعت بعضه ، ولم أسمع البعض الآخر ، تناول الذين عاشوا ، والذين ماتوا ، كما تناول أولاده الخمسة ، الصبيان والبنات ، وحكى عن الكبير الذى ذهب الى البلاد العربية ، وعاد بالجوز واللوز ، وقمر الدين ، وأصبح يمتلك متجرا وسيارة ، والصغير ، الذى يرتدى السراويل الزرقاء الضيقة ، المحبوكة على جسده ، وينفش شعره كالعبيد ، ولاحظت ان سليم ــ يرتدى فى معصمه ساعه كبيرة ، ويرتدى جلبابا حريريا أبيض ، ولكننى لم ألمح فى عينيه أبدا بريق السعادة القديم ، كانت عيناه باهتتين بلا طعم ، ردت نظراته بذلك على أمى عندما قالت :

ــ الحياة صارت بلا طعم ياسليم .. والناس لم تعد ناس .. أتذكر ياسليم عندما كنا فى شم النســيم ، نلون مائة وخمسين بيضة كاملة ونتبارى جميعا فى أكلها .. لم يكن للأشياء ثمن وقتها .. تنهد وأشـعل سيجارة ، سعل بعدها قليلا وأمن على كـلام أمى قائلا :

ـ الناس جاعت فى الزمن الملعون هذا ·· وأولاد الحرام لم يتركوا شيئا لأولاد الحلال ، تصورى ·· عيال سعدون الحاوى ، صار عندهم الآن عمارات ؟ · ناس تقول مخدرات ، وناس تقول الشقق المفروشة ، وشغل الحرام ·· والله أعلم ·

؛

أنا أيضا أشعر بأن الدنيا بلا طعم ·· حياتى ، وحياة الناس كلها ، أقرأ ذلك ، وأنا أطل على وجهى فى المرآة كل صباح ، وأراه على وجـوه الناس فى الشـوارع ، وعلى محطات « المترو » و « الأتوبيس » ، ويقوله زملائى فى العمل ، بالزفرات والتصعبات والآهات ·· ومنذ زمن لم أسمع ضحكة حقيقية ، ضحكها أحد من القلب ، ورغم أن اليوم عيد ، وأمى صنعت الكعك ، وغطت المائدة بغطاء جديد ، وابتاعت زهورا وحلوى ، لا أشعر أن أحدا قد فرح هذا الصباح ، طلقات البمب لم يعد لها هذا الدوى الطفولى فى أذنى ، الشوارع قذرة ، والوجوه يعلوها الاصفرار ، والخضرة صارت شيئا نادرا ، والمواصلات جحيم دائم ، والناس لم يعودوا يحب بعضهم بعضا ·· هكذا قلت لسليم عندما سألنى لماذا لم أتزوج حتى الآن ، وأمى تضحك بمرارة وتذكرنى بحبى لسليم ، ونوادرى معه ، ولأنها خافت من غضبى بسبب سؤاله ، راحت تغير اتجاه الكلام وذكرتنا عندما ذهب سليم الى الحرب ، وكنت أنا أصنع بنادق من الخشب ومشابك الغسيل مع البنات والأولاد فى حارتنا ، ونستخدم نوى البلح كبارود ، نحـارب به الانجليز والفرنسيين واليهود ، ونهتف بأعلى ما تمتلك حناجرنا الصغيرة من أصوات : عاشت بور سعيد المجيدة ·

وتذكرت أنا مع ذكرياتها أشياء أخرى كثيرة .. أيام حبى لسليم ، وحبى لعادل ابن الجيران ، الذى كان يصر على تقبيل ركبتى المجروحة ، عندما أقع ونحن نجرى ، ويقول لى : « طابت

خلاص » ، وأصدق أنا رغم لونها الدامى ، ونيران الألم المتصاعدة منهـــا ٠

وحكى سليم أيضا عن همومه : حفيده لا يعرف من هو الزعيم سعد ، ولم يسمع عن دنشواى ، وقال أن السبب هو الكفر ، فهو يتعلم فى مدارس كفره ، وسبب اليهود العرايا الذين يتجولون فى البلد براحتهم ، وقال ان بخلهم جعلهم يسيرون هكذا لأجل توفير مترى قماش ، ولما سألته عن « نافلة » بكى ٠ وبكت أمى أيضا بسبب أخى الذى هاجر الى كندا ، والذى تخشى أن تموت دون أن تراه ، ودمعت عيناى من الهم الذى يثقل صدرى ، وقلت فى نفسى الجميع يبكى بداخله ، ولكنه ينتظر اشارة البدء من الآخرين ليطلق دموعه ، وتذكرت كيف بكى الناس فى جنازة عبد الحليم وأم كلثوم ، وكادوا ان يخطفوا نعش رشدى أباظة ، رغم ان نصفهم لم يقدر له الذهاب الى السينما طوال حياته ٠ تنهدنا جميعا ٠٠ وقال هو :

ـ سرقنا الوقت ٠

نهض من مكانه ، تشبثت به أمى حتى يظل معنا للغداء ـ ولكنه كان مشغولا ـ هكذا قال ، وكنا مشغولين أيضا ، ولكننا كنا نجامله ٠٠ أجل نجامله ، رغم حبنا له الذى يعرفه ، مثلما يعرف أنه لا يرغب فى ان يثقل علينا بطعامه ٠

ابتسم بطيبة ٠٠ ومر بيده على خدى ، وقالت أمى :

ـ عيدها ياسليم ٠٠ الدنيا تلاهى صحيح ٠٠ لكن العشرة ليها حق ٠

وعدنا بأن يعود ليريـنـــا أحفاده الحلوين ٠٠٠ لكنه لم يعد أبـــدا ٠

لوكيميـــا

كانت أغرب فتاة في فرقتنا ، بل ربما في الصف الثاني على الاطلاق • من حيث الشكل ، قصيرة ، نحيلة ، ببشرة لفتية بيضاء، تبدو معها كما لو كانت منتشلة لتوها من الغرق ، أو كأنها على وشك الاحتضار أما أنفها الطويل المعقوف فيشطر وجهها شطرين ممصوصين ، تبرز منهما خرزتان خضراوان ، كانتا عينيها •

كانت تمتلك قدرة خاصة على الصمت وعدم الحركة والابتعاد عنا ، بل وحتى عن أقرب جارة لها تشاطرها المقعد المدرسى نفسه ، ولولا مهارتها الشديدة فى مادة الكيمياء ، لظننا أنها بلهاء ، غبية ، فقد كانت هى الوحيدة بيننا جميعا القادرة على خلط الخارصين بحمض الادروكلوريك بنسب صحيحة ، ودون الوقوع فى أخطاء •

كانت تستطيع تلاوة تلك التعاويذ السحرية الغامضة من نوع « يد ٢ ، كب ٤ ، لو ٥ » بمنتهى البساطة والسهولة ، وكانت تحفظ الجدول الدورى كاملا ، وتميز بين العنـــاصر والفلزات بدقة •• الى آخر ما حاولوا تعليمه لنا من ذلك العالم اللعين الذى سرعان ما يتبخر من الرأس ، بعد قضاء ساعات طويلة فى حفظه واستذكاره •

لذلك ، ولشكلها ، ولصفاتها البشرية ، ولأسباب أخرى ، أطلقنا عليها اسم « لوكيميا » وهو اسم سرعان ما انتشر فى صفنا

بأجمعه ، وفى الصـــفوف المجاورة لنا ، ومع مرور الأيام تسرب للفرقة الأولى والفرقة الثالثة ، حتى جنايني المدرســة العجوز ، الذى كان يعطينا وردات بين الحين والآخر ، بينما يغمز بعينيه ، ناداها فى احدى المرات بلوكيميا ٠

كانت كراهيتنا للوكيميا ليس مبعثها الغموض الذى يلفها ، وقدرتها الفائقــة على الصمت ، وتفوقها الشــديد فى الكيمياء ، بالاضافة الى بعض التصرفات الغريبة الأخرى ، التى كانت تبدر منها ونلاحظها ، أحيانا ، كحماسها الشديد وصوتها الجهورى وهى تنشد نشيد الصباح المدرسى ، ولكن كانت هناك أسباب أخرى ، كنا ندرك بعضها ، ولا ندرك بعضها الآخر ، وما كنا ندركه هو عدم مشاركة لوكيميا لنا فى أشياء كثيرة نحب ممارستها ٠ مثلا ، لم تكن تشاركنا قراءة « البطة السوداء » أو « الأرنب الشرس » ، عندما نتجمع فى ركن بعيد فى فناء المدرسة ، ونأخذ فى مطالعتها بتلهف ، مهما كانت الظروف ، حتى لحظــات الحر الخانقــة فى الصيف ، أو فى أيام الصقيع الشتوى ، ولم تكن لوكيميا تشاركنا الأحاديث عن تلاميذ المدرسة الثانوية المجاورة لنا ، كما كنا نشك فى أنها تحلم مثلنا قبــل أن تنــام بفصول ســاخنة من « البطــة السوداء » ، أو « الأرنب الشرس » ، وما ورد ذكره بدقة من فنون وأسرار الغرام على صفحات تلك الكتب الأخرى المقدسة ـ بالنسبة لنا بالطبع ـ التى كنا نقتنيها فى حرص ونتعلم منها مالا نعلمه ٠

وطالما ولجنا هذا الجانب ، فسوف أحدثكم عنه بوضوح أكثر ، ففى الحقيقة ، كانت لوكيميا تثير سخريتنا بصدرها الممسوح ، وعودها الجاف ، وحاجبيها الخشنين اللذين يلتقيان عند بداية أنفها ، وكنا نستغرب كونها لا تحرص مثلنا على نتف الشعر الذى يغطى ساقيها وذراعيها بعجينة الســكر والليمون ، بل والأغرب

انها ردت بابتسامة ساخرة على واحدة منا ، أشارت عليها باستعمال موسى الحلاقة سرا ، اذا كانت أمها تمنعها من ازالته ، وقالت :

ـ لا دخل لأمى فى هذا الموضوع ! •

أما جوهر الأمر ، الذى لم تستطع أى منا أن تفاتح به أخرى، والذى كان مبعث كراهيتنا الأساسى للوكيميا ، فهو قدرتها على فعل ما لم نستطع فعله أبدا ، فلقد كانت تمتلك قوة جهنمية تستطيع بها أن تثبت نظرات عينيها ، ولفترات طويلة ، على وجه مدرس الرسم ، وفى عينيه ، وهى تناقشه فى أمور لا نفهمها ، تتعلق بالألوان والنور والظل ، مدرس الرسم معبودنا جميعا نحن بنات الصف الثانى ، وهو الذى كانت نظرة واحدة الى عينيه كفيلة بأن تبعث فى أجسادنا رعشات كهربائية سريعة ، تجعلنا لا نعاود مثلها الا بصعوبة •

وأستطيع الآن أن أتذكر ، وبحلقى غصة مريرة ، ذلك اليوم التاريخى ، الذى قلب الأمور رأسا على عقب فى مدرستنا ، بل وغطى على كل الأحداث الأخرى الكبيرة ، التى حدثت آنذاك ، ومنها خطوبة « أبلة فضة » مدرسة مادة الفلسفة ، التى كنا قد فقدنا الأمل فى زواجها بعد بلوغها الأربعين ، وفشل صبغة الحنة فى مواجهة الزحف الأبيض على خصلات شعرها المجعد ، وأيضا مثل محاولة انتحار طالبة بالصف الثانى حزنا على وفاة مطرب شهير بعد صراع طويل مع المرض •

ففى هذا اليوم التاريخى ، يوم « لوكيميا » أعلنت ناظرة المدرسة ، من خلال أوامرها الصباحية ، طرد لوكيميا من المدرسة لمدة خمسة عشر يوما متصلة ، بسبب سوء وانحراف سلوكها ،

وزعمت ان هنالك واقعة محددة تتعلق بهذا الأمر ، تحتفظ لنفسها بتفاصيلها الخاصة حفاظا على بنات المدرسة ٠

والواقعة ، التى عرفناها بعد أيام طويلة من التحرى والتقصى، والتى سرعان ما اندلعت تفاصيلها بين الصفوف كلها ٠٠٠ تتلخص فى ان لوكيميا ضبطت فى شقة باحدى نواحى القاهرة ، وذلك بعد تكرار ترددها على ذلك المكان ، وبعد أن شاهدها الجيران وبعض أبناء الحى ، وأبلغوا البوليس الذى بلغ أهلها والمدرسة ٠

ولمدة خمسة عشر يوما ، وهى فترة غياب لوكيميا عنـا ، تضاربت الأقوال حول الموضوع ، فالبعض أشرن الى أن عدد من ضبطت معهم لوكيميا كانوا ثلاثة رجال ، فيهم طبيب المستشفى الجامعى الذى كان يحاضر أيضا للطلبة ، والبعض الآخر من البنات قلن بأنه كان رجلا واحدا فقط تجاوز الخمسين من العمر ، أما الرواية التى قهرتنا وأشعرتنا بالمرارة المريرة فقد جاءت على لسان تلميذة فى الصف الأول ، قالت ان العدد الحقيقى خمسة ، وذلك بعد أن أقسمت ثلاثا ، بل قالت لتؤكد روايتها ان أحد هؤلاء الشبان يمت لها بصلة قرابة ، فهو أخ غير شقيق لزوج بنت عمة أمها !! ٠

خمسة يالوكيميا مرة واحدة !! خمسة أيتها الجبارة المفترية !!

هذا ما كنا نردده جميعا فى مرارة ، فنجوى فوزى أجمل بنات المدرسة بكل ما تملكه من قوام فارع ووجه جميل ، بالكاد حصلت طالب بوليس ، ولوكيميا بشعرها الأجعد المنكوش وقامتها القصيرة ـ حتى ساقيها لم تخل من عضلات تتكور كعضلات لاعبى كرة القدم ٠٠٠ لوكيميا التى بلا صدر أو ارداف تحقق خمسة بضربة واحدة ؟؟ ٠

وبالطبع رحنا نتناقش ونخوض فى أمور أكثر تفصيلية عن الموضوع الذى ظـل محورا لأحاديثنـا طوال خمسة عشر يوما ، وخاصة بالنسبة لنا فى الصف الثانى ، حيث كنا أقرب وأكثر معايشة للوكيميا ، فقد استطعنا وضع النقاط على الحروف وتوضيح أمور دقيقة من خلال استعانتنا بمراجع عميقة « كالبطة السوداء » و « الأرنب الشرس » أما الأمر الوحيد الذى ثبت بعد كل ذلك ، فهو أن نظرتنا للوكيميا وفكرتنا عنها أخذت فى التغير على نحو جذرى ، وراح احترامنا لها يتصاعد ، وتقديرنا لقدراتها يزيد ، فلقد اكتشفنا فجأة قدرتها الفريدة ، وهذا ما دفع بنا فى النهاية للاتفاق على ضرورة فتـح صـفحة جديدة معها ، وضرورة تدعيم العلاقات بها منذ أول لحظة تعود فيها الى المدرسة عندما تنتهى عقوبة فصلها منها ٠

لقد أحدثت واقعة لوكيميا التاريخية تغيرات جوهرية فى عديد من بنات المدرسة ، تبدت فى جملة مظاهر منها أن البعض أخذن فى نكش شعورهن على طريقة لوكيميا ، وتركيا باهمال ، حتى ذوات الشعر الناعم المسترسل لم يعدمن الأساليب لتجعيد شعورهن خصلهن المنسابة على الجبين والبعض الآخر تركن شعيرات سيقانهن وأذرعهن تنمو على راحتها وتعمدن عدم نتفها أو حلقها ٠

وعلى امتداد الصفوف الثـلاثة فى المدرسة انتشرت ظاهرة حـواجب لوكيميـا الكثيفة المعقوفة ذات العبسـة ومن كانت حواجبها خفيفة ناعمة راحت تستخدم قلم الفحم لتبدو بحواجب « لوكيمية » ٠

أما طلاب المدرسة الثانوية المجاورة لنا بالحى ، فقد قررنا قطع العلاقات معهم ، لم تعد هناك مواعيد أو لقاءات أو خطابات

متبادلة بيننا وبينهم عن طريق محمد الأسمر بائع الفول السودانى الذى يقف بعربته على ناصية شارع المدرسة ٠

رحنا ننشد جميعا مستوى لوكيميا فى العلاقات مع الجنس الآخر ، طبيب ، مهندس ، طالب جامعى فى الحد الأدنى ٠

عــودة لوكيميــا !

عندما عادت لنا فى صباح أحد الأيام ، لا أستطيع أن أصف بأى مشاعر قابلنــاها ، فقط ، أتذكر ان طابور الصباح اليومى تأخر عن موعده بسبب الانشغال بلوكيميا ، ونسينا تحية العلم ، رغم حضورنا جميعا مبكرات ، ووجدت المشرفــة على النظام يومها صعوبة فى ترتيب الطوابير وضبط النظام ، فلقد تدافعنا جميعا الى لوكيميا ، البعض يريد التحـدث معها بسرعــة للحصول على معلومات جديدة ، الأخريات يردن فقط رؤيتها واعادة اكتشاف تركيبتها الجســـمانية الخارقة ، قليلات هن اللواتى اســـتطعن لمسها أو مصافحتها ، أو الهمس لها بالتحية ، وأظن ان فتيات فى الصف الأول همن بها فى ذلك الوقت مثلما همنــا بها بعد فترة لأسباب أخرى كما انهن حدثننى وقتها عن ارقهن الليلى بسببها مثلما كان يؤرقهن مدرس الرسم ، وأكدن ان ذلك حدث بعد أن تلاقت عيونهن بعينى لوكيميا ٠

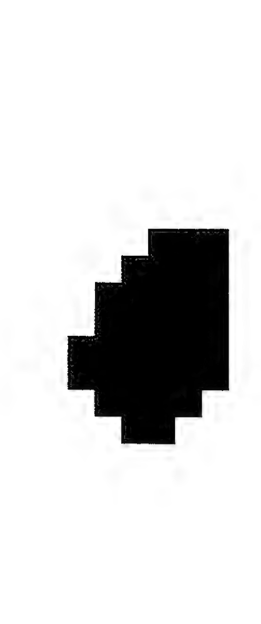
عينا لوكيميا فى ذلك اليوم ، يوم عودتها ، كانتا مدهشتين ، مدهشتين جــدا ، لأنهما كانتا تحملان النظرات القديمة الهادئة نفسها ، التى تستطيع أن تثبتها على وجه مدرس الرسم ، ومدرسة اللغة العربية المحجبة ، والتى زادت كراهيتها للوكيميا أضــعاف ما كانت عليه من قبل ، والتى لم نكن فى ذلك الوقت ندرك أسبابها على وجــه الدقــة ٠

وعلى وجه الدقة بدأنا نعرف لوكيميا أكثر فأكثر ، امضينا معها بقية النصف الباقى من السنة الثانية ، وكل السنة الثالثة ، حتى فى الأجازة الشتوية الصغرى ، والأجازة الصيفية الكبرى لم ننقطع عنها ، ولم تنقطع عنا ، كنا نزورها فى بيتها ، أو نلتقى معها فى الشارع ، تحدثنا ، واكتشفنا من خلالها أشياء كثيرة ، كنا نجهلها ، عن الحياة ، والرجال ، والنساء ، والأشياء ، حتى عن أنفسنا أيضا .

واكتشفنا انها جميلة حقا ، وتمتلك روحا رائعة ، لقد عرفنا من خلالها معانى أخرى عديدة للجمال ، اكتشفناها فى أنفسنا ، وفى الناس الذين كنا نعرفهم ، أو الذين كانت تعرفنا عليهم لوكيميا .

وكنا نمضى ساعات طويلة معها ، نتذكر ذكريات كثيرة عنها وعنا ، وتفاصيل صغيرة عن حياتها بيننا فى المدرسة ، لم نكن نلحظها أو ندركها ، وأدركنا بعد ذلك سر كراهيتها لمدرسة اللغة العربية المحجبة ، وسخرية لوكيميا الدائمة منها عندما تقول « الناس بعضهم فوق بعض طبقات » . كما اكتشفنا موضع القوة فيها ، والذى مكنها من الثبات فى مواجهة السحر الرجولى الشديد لمدرس الرسم .

ولقد عرفت الوكيميا أيضا طالبات الصف الأول ، وطالبات الصف الثالث ، وعرفت بنات المدرسة من خلالها بعضهن بعضا ، على نحو آخر ، ولأسباب لا تتعلق « بالبطة السوداء » أو « الأرنب الشرس » حتى حدث الذى حدث بعد ذلك ، فانه قبل انتهاء العام الدراسى بشهرين حيث كنا على وشك التخرج من المدرسة للالتحاق بالجامعة ، كانت لوكيميا قد خرجت على رأس المدرسة فى مظاهرة رائعة تاه هتافها بين هتافات المظاهرة الكبرى الخارجة من الجامعة عند ميدان العباسية .



العاشـــقة

الابتسامة المطبوعة دوما ، كوشم ابدى على وجه الممرضــة فايزة ، والتى كانت السبب فى ترقيتها أكثر من مرة ، وحصولها على شهادة تقدير من ادارة المستشفى بالاضافة الى شهادة الأطباء والمرضى لها بطول البال وسعة الصدر ، هذه الابتسامة التى تبرز سنها الأمامى المكســور ، تفضح بالتجاعيد الخفيفة المرتسمة معها حول الشفتين حقيقة عمرها كامرأة أربعينية ، أخذ شبابها فى العد التنازلى منذ سنوات ، وتضفى على نظرات فايزة مسحة من التفاؤل والبشر لا أحد يعرف على وجه التحديد ، سرهــا ، سر الابتسامة التى لا تغيب حتى عندما تناول فايزة الطبيب مبضعا فى غرفــة العمليات ، أو وهى تجرى مسرعــة فى ردهات المستشفى لتلحق بالصيدلية قبــل اغلاقها لاحضار الأدوية وقد تصور طبيب عاش سنوات فى لنــدن ، أن فايزة لابد وأن تكون قد تعلمت أصــــول التمريض خارج البلد ، فهو لم ير ممرضة تعمل فى مستشفيات الحكومة ، تبتسم أبدا ، ثم ان فايزة لطيفة ورقيقة ، وتبدو — رغم انطباع بصمات الزمن على وجهها — كفتاة صغيرة ما زالت فى ربيع العمر ، تعيش حالة من العشق الدائم ، خصوصــا عندما تتنهد تنهدات ناعمة ، وترسل نظراتها الحـالمة الطويلة ، التى دفعت المرضى مرات كثيرة الى محاولة تقبيلها أثناء الليل ، عندما تكون مناوبة ، وهى تعطيهم الدواء أو تحكم وضع الأغطية عليهم ، لكن

الحقيقة ان فايزة كانت تردهم بهدوء وحزم دون أن تعنفهم ، وتعاود الابتسام من جديد ·

فايزة نفسها لم تكن تدرك سر هذه الابتسامة ، ربما لأنها لم تفكر فيها أبدا ، وربما لأن الحياة لم تمنحها الفرصة للتفكير فى نفسها كثيرا ، فأمها ماتت قبـل أن تلدها ، ولولا وصول سيارة الاسعاف فى الوقت المناسب ونقلها الى المستشفى ، حيث تم فصل اللحم الميت من اللحم الحى ، لكانت فايزة فى خبر كان ، ولما رأت عيناها الدنيا أبدا ، ثم انها شربت هم الزواج قبل الأوان ، فبعد ان حاضت ، للمرة الأولى ، بسنة وتمدد جسدها بالطول والعرض تمددا كافيا لاقناع الرجال بها كامرأة صالحة للمضاجعة وانجاب العيال ، زوجها أبوها لأول طارق طلب يدها وكان الأب يتشد ابعاد العبء عنـه ، وراحة البـال لنفسه ، ولابنتـه هدوء السر والسترة ، اذ تصبح أمانة فى عنق رجل آخر يعينها على عوادى الزمن ، وأفعال أولاد الحرام الطامعين فى الولايا وبنات الناس ، اللواتى لا حول لهن ولا قوة ولا سند فى الحياة .

وفايزة بعد أن تزوجت المدعو عباس ، خلفت قبل اكتمال العام ، واستمرت تخلف حتى صار لديها شـلة من الصـبيان والبنات ، أولاهم بنت داخلة فى سن الطيش والنزق ، وأصغرهم صبى لم يبلغ الرابعة بعد ، تجرى وراءه فايزة بعض الأحيان فى البيت لتضربه وتلمه من الحارة كلما غافلها وخرج ، ثم انها تغسل وتمسح وتكنس وتطبخ ، وتدور فى حجرات الشقة ، ولا تنتهى دوامة همومها ، منذ صباح ربها ، الذى يبدأ باعدادها للفطور ، وايقاظ العيال من النوم ، ثم الجرى بعد حوالى ساعة من ذلك ، وراء الأوتوبيس ، للحاق به والوصول الى المستشفى فى الميعاد المرصود ، الذى تحافظ عليه فايزة محافظتها على روحها ، منذ أن

تعينت كممرضة فى المستشفى الذى تقف بين جدرانه ، وقوف الديدبان طيلة سبع ساعات يوميا وربما أكثر حيث تراقب الممرضات اللواتى تترأسهن وهن يخدمن المرضى ، خشية أن يسرقن دواءهم أو طعامهم ، وتتحمل سخافات هؤلاء المرضى الذين يأتى معظمهم من القرى البعيدة ، للعلاج المجانى فى مستشفى الحكومة ، فتواسيهم وتسايرهم فى الكلام والحديث ، وتأخذهم على قدر عقولهم وفهمهم . بينما تغرز حقنة فى عجيزة احدهم ، أو تقص جلدا مهترئا حول جرح متقيح لآخر ، وعندما يتألمون ويكيلون الشتائم لها ولأطباء مستشفى الحكومة ، وللحكومة نفسها ، ورئيس الجمهورية عند اللزوم ، تبتسم وتواسيهم مطيبة خواطرهم ، وتطمئنهم انهم سيستريحون بعد قليل ، وحتى عندما يطلبون منها طلبات ربما لا يتجرأ الشيطان نفسه على طلبها : كانت تلبيها لهم عن طيب خاطر أو تنهرهم بلطف ، وقد أوشكت ممرضة أخرى فى احدى المرات ، أن تنقض على رجل عجوز لتضربه ، عندما لاحظت ان فايزة أتته بالمبولة ما يزيد عن ست مرات خلال ما يقل عن ساعة ، لانها كانت تدرك ان الرجل لم يكن محصورا ويكذب راغبا فى التلذذ كلما راحت فايزة تدس المبولة تحت فخذيه وتلامس يدها جسده .

الشهادة لله ، ولجميع من تعاملوا مع الممرضة فايزة ، انها كانت حالة نادرة بين الحكيمات والممرضات ، اللواتى هن فى واقع الحال زبانية العذاب فى مستشفيات الحكومة . ومنها المستشفى الذى تغادره فايزة كل يوم وأقدامها تكاد أن تنفجر فى داخلها الشرايين والأوردة ، لكثرة اندفاع الدم فيها ، بسبب الوقوف المستمر الذى يتواصل فى البيت عند عودتها لكنها لا تمل من شغل البيت المفروض عليها فرضا ، بحكم كونها زوجة وأما للعيال ، الذين

لا تنتهي طلباتهم منذ اللحظة التى تطأ فيها قدمها عتبة الشقة ، وحتى اذا ما لبت هذه الطلبات ، فثمة مشاغل أخرى تبرز أمام ناظريها فجأة ، حيث يبرز كوب شاى فارغ ، تركه زوجها بجانب السرير بعد أن شربه قبل قيلولته مخلفا بداخله عقبا أو عقبين من سجائره أو تحمل الولد ابنها الى الحمام ، وتجبره على غسل قدميه الوسختين ، قبل النط على السرير ، والدوس على الفراش النظيف الذى سبق ان رتبته منذ قليل .

منذ اليوم الذى لبست فيها فايزة الثوب الأبيض وثبتت الطرحة التل على رأسها ، بعد أن نتفت شعر جسمها ووجهها وسوت حاجبيها وزغردت لها نسوان الحارة والحوارى المجاورة ، ابتهاجا بدخلتها ، وهى دائخة دوخة البهيمة فى الساقية فهى من البيت للشغل ، حيث ينهد حيلها وينقصم وسطها من طيلة التوطية والوقوف ، بينما هى تغسل وتمسح وتطبخ .

فايزة لا تشعر بلحظة حلوة فى يومها ، الا اللحظة التى تفرد فيها طولها على السرير ، وترمى رأسها على المخدة ، حيث تبدأ فى الولوج الى عالمها الليلى الجميل ، حين يأتيها ذلك الحلم الذى لا تعرف على وجه التحديد متى بدأ ، ولماذا يستمر دون أن يفارقها فى كل مرة تحط رأسها لتنام ، حيث تنسى الدنيا وما فيها ، عباس والعيال ، المستشفى والمرضى ، الكنس والمسح والطبخ ، وتشعر أنها فى عالم آخر ، ودنيا ثانية ، وأنها هى ، فايزة .. ليست فايزة أبدا ، ولا علاقة لها بالممرضة فايزة ، لأنها تكون فى هذه اللحظات واحدة جميلة ، جميلة جدا ، أحلى من بنات السينما والتلفزيون ، وحتى حوريات الجنة ، اللواتى يحكون عنهن ولا تشبه فايزة التى ترى صورتها كل يوم فى المرآة ويعرفها الناس ، بجفونها المنتفخة ، وبشرتها الشاحبة ، وشحمها المتركز حول

أكتافها ومؤخرتها ، وتشققات كعبيها التى تبدو كتشققات أرض بور جففتها أشعة الشمس ، فايزة التى يعلو صوتها بين الحين والآخر ، وهى تزعق فى ابنها الصغير ، وتتصعب قائلة « اسكت يا مقصوف الرقبة وجعت قلبى » .

كانت عندما تكتمل تماما صورة فايزة الأخرى بعينيها بينما يتسلل الى أذنيها صوت شخير زوجها ، مختلطا بصفير صرصور مناوب فى عفشة المياه ، تجد فايزة نفسها فى أحضان شاب جميل ، طويل فارع ، تشكلت ملامحه من صور كل الرجال الوسيمين الذين رأت صورهم فى المجلات أو التقتهم فى الحياة ، انه حنون ورقيق أيضا ، يمسح على رأسها مواسيا ، يقبلها بين حاجبيها ، ثم يجذبها الى أحضانه ويطوقها بذراعيه ، وبعد أن يستمرا على هذه الحال فترة ، يسألها هامسا ان ترحل معه بعيدا .. بعيدا .. عن الدنيا ، الى مكان هادىء نظيف ، ليعيشا معا فى تبات ونبات ، دون أن تخلف له صبيان وبنات ، يوجعون رأسها بالشيل والحط ، والمسؤولية عندئذ ، تشعر فايزة أنها حمامة بيضاء ، محلقة فى السماء الزرقاء ، بالفرح والنشوة ، وبعد أخذ وعطاء مع حبيب الحلم ، تعود فايزة فتطوقه وتقبله مرة أخرى ، وتقول له سأذهب معك يا روحى الى نهاية الدنيا ، فأنا لا أستطيع الحياة بدونك وبعيدة عنك مهما كانت الظروف .

لكن ... دون أن تدرى ، كيف يجرى لها ذلك على وجه التحديد ، ترتسم فجأة فى عينيها المغمضتين بقوة ، وعلى نحو بالغ الوضوح ، صورة ابنها الصغير ، يبتسم لها ببراءة ، قافزا ، ليطوق رقبتها ويمطرها بقبلات كثيرة ، فتفيق قليلا وتشعر بقلق وتتقلب فى فراشها ، ثم تزيح زوجها لينام على جنبه الآخر ، ليكف عن الشخير ، قبل أن تستسلم لسبات عميق .

ما جرى لبوسى

كقطرة المطر المتساقطة على طرف أذنها ، سارت وحيدة شاردة ، تلازمها الحيرة ، ولا تدرى على وجه التحديد ذاك الذى حدث لها .

فعلى عادتها كانت قد رقدت متكومة على حاشية المقعد الطرية ، تستمتع بمتابعة رقاص الساعة المواجهة لها على حائط من خلال فرجتى عينيها ، وهى تهرفى رضى . كان يتحرك مرة لليمين وأخرى لليسار ، والسيدة ذات الشعر الذهبى تسحب أنفاس سيجارتها وتنفثها بلطف ، عندما عبق الجو فجأة برائحة غريبة لم تعرفها بوسى من قبل ، كانت رائحة تنفذ الى داخلها ، وتطغى على رائحة طلاء أظافر السيدة ، التى كانت مشغولة باستخدامه ، وعلى رائحة اللحم اللذيذة التى كانت تهب من المطبخ بين الحين والحين .

نهضت وقوست ظهرها وتمطت وهى تتثاءب حتى بان حلقها ، وراحت تجوب برأسها وتحرك شواربها متشممة الهواء ، وترسل بوقى أذنيها فى كل الاتجاهات ، علها تسمع صوتا ، وشيئا فشيئا ، اعترتها آلام من نوع غريب ، كانت فى البداية ضعيفة خافتة ، ولكنها سرعان ما احتدت واجتاحتها ، وسيطرت على كل حواسها ، ولم تكن كآلام الجوع أو الحاجة لقضاء حاجتها ، التى تجعلها تموء فى رقة ولطف ، بل آلمتها فجعلتها تصرخ غير قادرة على النوم ،

وزاهدة في مداعبة خيوط السجادة ، وسرعان ما فقدت شهيتها للطعام ، وظلت تتلوى على الأرض من حين لآخر .

وفي اليوم الأخير قبل أن تذهب ، جاء رجل ضخم ، ووقف ينظر الى السيدة ، وهو يمط شفتيه في امتعاض ، ويطلق أصواتا مختلفة أخافت بوسي ، وجعلتها تختبيء في مكانها المفضل خلف أفروديت الرخامية الجميلة ، الواقفة في الركن ، والسيدة تشيح بيدها ، فتتحرك معها أساورها الذهبية اللامعة ، مما جعل لدى بوسي رغبة لا تقاوم في أن تقفز وتلامسها بأظافرها .

وعندما جاءت البنت الصغيرة ، التي كانت تضع لها اللحم في الطبق الكبير ، واللبن في الطبق الصغير ، من المطبخ ، وهي ترتدي فوق رأسها ذلك الشيء الملون ، الذي كانت القطة تميزها به عن الآخرين ، وظلت تبحث عنها تحت الأريكة والكراسي المذهبة والمنضدة الرخامية ، حتى عثرت عليها ، في مكمنها ، فرفعتها برفق ، وفكت الشريط الحريري الأحمر ذا الجرس الفضي عن رقبتها ، ثم فتحت الباب ، وسارت بها بعيدا بعيدا ، ثم تركتها وذهبت .

ثلاثة أيام قضتها بوسي في ذلك المكان ، تصارع القطط ، ويتصارعون عليها ، كانت في البداية خائفة مذعورة من نباح الكلاب ، تحدق بدهشة في تلك الأكوام الهائلة من الأشياء ذات الرائحة العفنة ، وتبحث عن أماكن طرية مريحة ترقد فيها مثلما كانت تفعل في البيت القديم ، بحثت عن الطبق الكبير والطبق الصغير ، ولكنها لم تجد لبنا ولا لحما ، أما الذباب الذي كان يحوم حولها في النهار ، والناموس الذي يلسعها في المساء ، فكان أشد ما يضايقها . الشيء الوحيد الذي ارتاحت له بوسي في ذلك المكان ، كان اختفاء تلك الآلام الرهيبة التي داهمتها من قبل .

وها هى تترك ذلك المكان هاربة ، عندما زمجرت السماء وسقط المطر ، ومازالت تجرى وتنط ، وترغب فى أن تتوقف قليلا ريثما تستريح وتلعق فراءها المبتل ، لكن لم تكن هناك فرصة لذلك ، وراحت تتقافز بجانب الجدران رعبا من الخطى الآدمية التى راحت تتجاوزها ، مسرعة عندما تلاقيها ، وفكرت أن تتوقف أمام دكان اشتمت منه رائحة لحم ، لكن العجوز المتربص على بابه لم يمهلها لتفكر ، لقد أشاح لها بمقشة طويلة ، فلاذت بالفرار .

عندما توقف المطر وبانت النجمات لامعة فى السماء ، توقفت القطة لاهثة ، ترقب الأشياء فى حزن ، وترغب فى الأكل والدفء والنوم ، وظلها يرتسم على أسفلت الرصيف ، فى ضوء العربات المسرعة ، مرة كبيرة يصعد الجدران ، وأخرى صغيرة باهتا . وكانت تلعق فراءها المبتل ، وتستريح ، عندما تحسست تيارا واهنا من الدفء يسرى الى جسدها بين الحين والحين ، نفضت فراءها مرة واحدة لتزيل ما تبقى عليه من قطرات ، وترقبت مستطلعة ، وسرعان ما مرقت من خلال الأسياخ الحديدية الصدئة ، وزجاج الشباك المكسور الذى كان بجوارها يطل على أرضية الشارع ، رتهب منه النسمات الدافئة ، وبقفزة واحدة رشيقة، ألقت بجسدها على بلاط الحجرة العارى .

التمع البؤبؤ واستطال فى عينيها ، وهى تدور ببصرها على الجدران المغطاة بصور كثيرة ملونة ومسامير بارزة وقد علقت عليها ملابس كالحة ، وكانت قطع الأثاث القليلة ، قد استندت الى جدران ، باهتة ، تكاد تتداعى . حدقت القطة بشدة ، حيث كانت تجلس امرأة على الأرض ، تتوسط كومة من العيال ، حول طبلية صغيرة ، يغمسون أيديهم فى الأطباق ويرفعونها الى أفواههم بسرعة .

وكانت المرأة تضـع على رأسها الغطاء الملون نفسه ، الذى كانت تميز بوسى به البنت الصغيرة ، واضـعة اللحم فى الطبق الكبير ، واللبن فى الطبق الصغير ٠

تعجبت القطة وخافت ، ولكنها سارت تتهادى عندما دعاها الولد ، الذى كان أنفه يسيل على شفتيه قائلا :

بس ٠٠٠ بس ٠٠٠ بس والذى هب من مكانه ، وعينـاه تضحكان فى مرح ، وراح يحملها فى حضنه ، وثقلها يجعله يتحرك بها بصعوبة ٠

استسلمت فى رضى ، فمنذ أيام لم تلق حنانا من أحد ، ولم تربت على ظهرها أو تداعب رأسها يد ، فقط تضايقت من ملمس أصابعه المبللة بالزيت ، وهى تتحرك على فرائها فودت لو يطلقها لتلعقـه ٠

هتفت المرأة لمرآهـا :

ــ قطة حلوة ٠٠٠ خلوها عندنا تأكل الصراصير ، وتصيد الفئران ٠

وألقت اليها بلقمة خبز سوداء مغمسة بزيت الفول ، تشممتها القطة وابتعدت عنهـا متأففة ، وواصلت المرأة ابتلاع طعامها فى نهـم ٠

أما الصغار فتدافعوا حولها يتلاعبون ، وضع واحد يده على رأسها ، وراح آخر يتحسس ذيلها ، وثالث يبحث عن موضـع أثدائها ، وهى تتحمل ذلك على مضض ، ولكنها لم تطق صبرا ،

عندما حاول الصغير الزاحف على بطنه أن يجذبها من شواربها ، فرفعت يدها مهددة ، وهى تنفخ فى وجهه ، فخاف وتراجع باكيا .

عندئذ . هتف الرجل الذى كان يجلس فى الطرف الآخر من الحجرة بعد أن ابتلع نفسا طويلا من « البورى » ، دافعا بسحابة زرقاء من الدخان أخفت ملامحه :

ـ اطردوها .. يظهر أنها مسعورة .

بعدها .. أخذت القطة تجرى ، وأحذية قديمة وعلب فارغة تطير نحوهـا فى الهواء ، وانطلقت من حيث جاءت بأقصى سرعة استطاعتها ، ومرة أخرى كانت تسير على الرصيف .

صفرت الريح لافحة عظامها ببرودة مؤلمة ، وكان أنفها يبتل بللا ضايقها ، والجوع والتعب يدفعـان بها لأن تطلق مواء حادا مستجديا ، وكانت تخاف أن تقابل قططا أخرى فى تلك الليلة التى لا تقوى فيها على صراع أو مشاحنة .

مرقت من بوابة مظلمة ، وراحت تقفز درجات سلمها دون أن تتوقف ، وأنفاسها تكاد تسكت عنها ، وعندما واجهت سطحا فسـيحا توقفت ، لم يكن فوقها غير السماء والسحب الرمادية الداكنة ، لمحت القطة الضوء الخافت يتسرب من فتحة الباب الذى يتوارب عندما تدفعه الريح ليعود ويرتطم بافريزه الخشبى .

مرقت منه فى حذر بعد أن دفعته بيدها قليلا ، وراحت ترقب الأشياء ، لم يكن يتحرك أمامها غير جسد امرأة ، وهى تنحنى بين الحين والحين حتى تلامس جبهتها الأرض ، وتعود لترفع هامتها متمتمة .

رغبت القطـــة فى أن تقفز وتخمشها فى ضفيرتها الصوفية البارزة من طرف وشاحها ، والتى كانت تتحرك مع حركتها ، ولكنها

اشتمت رائحة أكثر جاذبية ، جعلتها تسحب هواء كثيرا الى صدرها، وبسرعة قفزت الى حيث كانت علبة السالمون موضوعة على المنضدة المكسورة فى الركن ، أدخلت رأسها فى داخلها ، فهوت على الأرض لتبرز منها نصف سمكة فضية هزيلة ، راحت تلتهمها فى نهم وهى تتوقف بين وقت وآخر ، علها تجد أحدا ينوى اقتسامها معها ٠

كانت لا تصدق أنها تأكل فى تلك اللحظة ، وعندما فرغت من السمكة لعقت جدران العلبة بقدر استطاعتها ، ومسحت ما تناثر منها على الأرض بلسانها الخشن فى تلذذ ٠ راحت تمسح فراءها الأسود فالتمع ، ومسحت وجهها بيدها ، وخلصت ذيلها من أقذاره ، وبينما هى تستعد للقفز فوق السرير ، الذى اكتشفته ، لتتمدد بين الأغطية ، تسمرت وفتحت عينيها عن آخرهما فى وجه المرأة التى كانت قد انتهت من صلاتها ، وراحت تخرج المسبحة من صدرها ، وتتمتم بالحمد ٠ أعجبت القطة حركة الأصابع وهى تعد حبات المسبحة الصفراء فى وتيرة سريعة منتظمة ، وكانت لا تمانع فى اللعب الآن ، أما المرأة فقد أسفت على ما حدث للسالمون ، وثارت بها رغبة فى ضرب القطة وطردها ، ولكن الليل والظلام وتلك الدهشة والنظرات الغريبة فى عينى القطة جعلتها لا تفعل ٠ حوقلت ونظرت اليها ، واستعاذت بالله من الشيطان الرجيم ٠ كان فراء القطة الأسود الداكن ، ونظراتها الثابتة التى لا تحيد عنها ، يجعلان شعورا مبهما من الرهبة يسرى فى روحها ، وتعتريها اهتزازات خفيفة يتحرك لها الوشم الأخضر أسفل ذقنها ٠

أتمت المرأة بالبسملة كاملة ، والقطة جالسة ما زالت تحدق بها ، لكن هريرها سرعان ما تصاعد فى رضى ٠ تنفست المرأة براحة ، فربما كانت تلك الروح الطيبة التى تصلى أمامها ، والتى جاءتها فى جسد قطة ، هى روح ابنها المتوفى ، وقد أتت لزيارتها ٠

تشهدت بصوت مرتفع ، ونادت على القطة ضاربة على فخذها ضربات خفيفة ، نظرت القطة فى دلال ، وبدت كما لو كانت لا ترى ، لكنها سرعان ما سارت اليها ، وقفزت لتستقر على فخذها فى انتظار أن تمسح المرأة على رأسها ، أو تداعب تلك الأماكن الخشنة فى ذقنها ، والتى لا تستطيع أن تنظفها جيدا ٠

فكرت المرأة بروح ابنها الطاهرة ، واطمأنت الى أنها قد حشرت فى زمرة الأخيار ، فالقطة كانت تقرأ أورادها لداود الملك ــ أبو الأنبياء وسيد الجنة والحيوانات ــ وصدقت المرأة اعتقادها قائلة لنفسها « لو كانت روح نجسة لجاءت فى جسد كلب » ، وتذكرت ابنها ، ودموع كثيرة تنسكب من عينيها ، وفكرت كيف بذلت بذلك حياتها من أجله ، وربته ، ولكنه راح منها منذ سنوات ، وها هى لا تستطيع الا أن تظل هكذا ، تنتظر روحه لتأتيها وتطل عليها ٠ فكرت فى أن تحادثه وتقول له : « يا محمد يا ضناى لا تحزن لأننى لم أزرك فى العيد الكبير ، فلقد كنت مريضة ، ولم أستطع التحرك لمدة أسبوع ، ولكنى وزعت الصدقة على روحك للمساكين ، مثلما أفعل دائما » ، وبأن تقول له أيضا كيف أنها ندبت وولولت يومها وما خلت ٠ كانت ترغب فى أن تقول له أشياء كثيرة عن حياتها بعده ، ولكنها خافت من أن ترفع صوتها بمثل هذا الكلام فى حضرة الروح ، وأطرقت خاشعة فالروح ما زالت تقرأ صلواتها للنبى داود ٠

تضايقت القطة من الدموع التى سالت على رأسها ، فراحت تحكه فى صدر جلباب أم محمد الأسود الخشن ٠ هاجت مشاعر المرأة وتذكرت حنان وحيدها الراحل ، وهمست لحالها متصعبة : « كنت فى شوق لهذه الزيارة من زمان يا ولدى ، وربتت على ظهر القطة فماءت طالبة المزيد من الحنان ، ظنت المرأة ان بوسى

عطشى ، فنهضت وعادت اليها باناء صغير من الماء ، تشممته القطة ، ونظرت فيه ، ومدت لسانها تذوقته ، ولكنها ابتعدت آنفة · فكرت المرأة فى أن تحبسها لتستبقيها ولا تدعها تخرج ، ولكنها خافت ، واستعاذت بالله من وساوس الشيطان ، وهل تجرؤ على حبس روح تسرى فى الليل ؟! · جلست على حافة الفراش ، فقفزت القطة الى جانبها ، وفكرت المرأة أن تأخذها فى حضنها مثلما كانت تفعل مع وحيدها الراحل وتهدهده · راحت تبكى وقد صعب عليها حالها ، وشعرت بأنها وحيدة بائسة ، بينما كانت القطة قد رقدت بجانبها ، تتصاعد أنفاسها دافئة وتتمطى بين الأغطية ·

كان النعاس قد بدأ يداعب المرأة ، وبدأ غطيطها يعلو وهى تحلم بأن وليدها فى حضنها يقاسمها الفراش ، عندئذ كانت القطة قد ملت الرقاد ، وقفزت الى الأرض باحثة عن نصف سمكة فضية أخرى ·

زينات فى جنازة الرئيس

المفروض ان اسمها « زينات » لكن الكل كانوا ينـادونها « زنات » حتى عبده المزين ، عندما كان ينتهى من خط رسالة ، بالنيابة عنها ، الى رئيس الجمهورية ، الذى دأبت على مراسلته ، كان يذيل ما يكتبه باسم « زنات محمد على » وذلك بعد أن يثبت القلم بين أصابعها جيدا ، ثم يطبق على يدها بيده ويحركهما معا ، ليكون الامضاء بيدها فعلا ، وزيادة فى تأكيد ذلك ، كان يبلل قلم الكوبيا بريقه ، ويلون به ابهامها حتى تتكون بقعة بنفسجية كثيفة ، تكفى لطبع بصمة واضحة المعالم ، فوق حروف الاسم ، الذى كتباه معـــا .

ويمكن القول انه خلال السنوات الأخيرة من حياة الرئيس ، نشـأت بينه وبين زينات علاقة خاصـة جدا ، مع أنهما لم يلتقيا خلالها أبدا وجها لوجه ، الا انه ، ورغم كل شىء ، يصعب القول انها علاقة من طرف واحد ، صحيح انهما لم يلتقيا ، ولم يتسن لزينات أبدا أن تحادثه ، وتقول له بلسانها كل ما تود قوله ، لكن العلاقة المستمرة بينهما وصلت الى حد انها رتبت خطة ، تصورت أنها دقيقة ، لا تخر المياه ، لكن الأيام ، وساعة التطبيق ، أثبتت فشلها فشلا ما كان يخطر ببالها وخاطرها أبدا ، بل وأكثر من ذلك ان عبده المزين نهرهـا بشدة ، وحذرها من معـاودة عملتها المجنونة تلك ، لأن الله ستر هذه المرة ، وكان ممكنا جدا أن يأخذوها

ــ زينات نفسها ــ ويخفوها وراء الشمس ، دون أن يعرف الجن الأزرق قرارا لها ، بل وقال انها عبيطة لأنها تصورت انهم سيسمحون لها بالاقتراب ، الى هذه الدرجة من رئيس الجمهورية ، محاولة مصافحته ، اليد باليد ، وتسليمه العريضة ، ثم هل نسيت العسكر والمخبرين والحرس ، الذين يحوطونه من كل ناحية ، مطرح ما يروح ؟!

والحقيقة ان نصائح عبده لزينات لم تكن أكثر من تحصيل حاصل ، لأنها جربت بنفسها كل كلمة قالها ، فرغم أنها كمنت ، من طلوع النجمة ، على ناصية شارع من الشوارع ، التى تعرف أن الرئيس يمر بها ، كل مرة ، بعد صلاة الجمعة ، ورغم أنها استطاعت ، كنتيجة لذلك ، الحصول على موقع متقدم جدا بين الجموع ، التى تقاطرت لتحية الرئيس ، بعد أن كتب لها تلميذ من تلاميذ المدرسة ، رسالة صغيرة ، نوت زينات أن تسلمها للرئيس ، لتكون كلمتين ورد غطاهم ، ونصها الحرفى : « زنات بتسلم عليك ، وتقول لك عملت ايه فى الموضوع اياه ؟ » ، رغم كل ذلك ، فانها فى اللحظة التى تصورت فيها أن سيارة الرئيس قريبة منها بما يكفى، لتخطو تجاهها ، بسرعة ، وتهجم عليه ، لتصافحه وتسلمه الورقة ، فوجئت دون ان تدرى بعشرات الأيدى الغليظة ، لعسكر ورجال آخرين ، برزوا فجأة ، كما لو أنهم سقطوا عليها من السماء ، وراحت تدفعها بعيدا عن السيارة والموكب ، لتسقط بين الأقدام ، التى لاحظت زينات ، ساعتها ، أن عديدا منها مغطى بأحذية جلدية عالية ، ثبت فى بعضها طبنجات تكفى لجزر بلد .

لكن هذه الحادثة المؤسفة ، وفظاعة الآلام ، التى عانت منها زينات بعد ذلك ، لم تحل دون استمرار علاقتها بالرئيس ، ولم تغير نفسها ، من ناحيته أبدا ، كما ان صوره فى عشتها بقيت فى

مطرحها ، كما هى ، تلك الصور ، التى لم يكن أى شىء سواهـا يزين العشة ، التى بنتها زينات ، بنفسها ، من الحجر والطوب والصفيح ، بعد أن استولت على بضعة أمتار من أرض الحكومة ، على جانب الطريق العمومي ، حيث تجلس أمامها ، مناوبة ، من الصبحية ، حتى قرب غروب الشمس ، فى انتظار دخول وخروج تلاميذ المدرسة الابتدائية ، التى كانت ، فى الواقع ، ثلاث مدارس فى مدرسة واحدة ، يدخل اليها الأولاد والبنات ، على دفعات ، للدراسـة ، وكانت زينات تبيع لهم العسلية والفشار والترمس وألعاب بلاستيكية صغيرة ، تكون من حظ أولئك الرابحين فى لعبة الحظ ، التى يشترونها منها .

أما تشييع الرسائل للرئيس ، فزينات لم تتوان عنها أبدا . مما يؤكد ، مرة أخرى ، ان العلاقة بينها وبين الرئيس لم تتعكر ، وأنها فضلت صافية ، لبن ، وكانت زينات تشوف الحادث على أسـاس أنه جرى من وراء ظهر الرئيس ، لأنه لو درى أن أولاد الحرام ، اياهم ، منعوها من السلام عليه وتسليمه الورقة ، لكان ، ولا بد ، يروحهم وراء الشمس ، فهو يفهم ، ويعرف نية زينات ، وأنها لا يمكن أن تقصد أذيته ، والا ، ولو كان الأمر عكسه ، لما كان رد على خطاباتها له ، أكثر من مرة ، وما كان موضوعها جاريا نظره فى الحكومة ، وما كان أرسل لها موظفة من الدولة ، لتعاين العشة بنفسها ، وتشوف بعينها حالة زينات ، وتسألها أسئلة كثيرة عن أحوالها ، وأحوال الدنيـا معها ، بل انها أكدت لها ان موضوعها سيخلص ، خلال الشهور القليلة القادمة .

والشهور القليلة ، التى تلت ذلك ، لم تخيب ظن زينـات بالرئيس ، بل ويمكن القول ان الخطة ، التى رسمتها ، على ضوء تصريحات موظفة الحكومة ، قد نجحت هذه المرة . والواقع انها

خطة تنمية صغيرة ، رسمتها زينات لنفسها ، تتلخص خطوطها العريضة فى أن توسع على روحها فى الاكل ، بين الحين والحين ، وفى سبيل ذلك تشترى وابور جاز ، وحلة الومنيا لتطبخ فيها كلما هفت نفسها لأكلة لحم ، كما ستقوم بشراء جلابية قطيفة زبدة ، وقمطة بالخرز ، بدلا من جلابيتها المقطعة ٠٠وقبل كل شىء ، وباذن واحد أحد ، سوف تسدد ديونها المنظورة ، التى تتلخص فى جنيهين لعبده المزين ، آخر دفعة تبقت له من دين قديم ، استلفته منه ، لتشترى بضاعة جديدة تتاجر فيها ، وكذلك ديونها غير المنظورة ٠ والتى هى عبارة عن عدة دعوات من أخيها ، صاحب العيال ، لأكل اللحم ، وعدة خمسينات قروش ، كان يمدها بهم ، عند أول كل شهر ، وقد عزمت زينات على زيارة أخيها ، باثنين كيلو لحم ، عندما تمسك الفلوس بيدها ٠ وقبل كل شىء ، زوج فراخ محترم ، وزجاجة شربات ورد ، هدية خالصة لعبده المزين ، نظير عطفه عليها ، وخدماته لها فى كتابة الرسائل لرئيس الجمهورية ، وهى الخدمات ، التى كللت أخيرا بالنجاح ، حيث تقرر صرف معاش استثنائى لها ، قدره ثلاثة جنيهات ، بالتمام والكمال ، أصبحت بسببهم تذهب شخصيا ، وبكل فخر وثقة واعتزاز بنفسها ، وبرئيس الجمهورية ، الى خزنة الحكومة ، فى طلعة كل شهر ، لاستلامهم بعد ابراز السيركى اللازم لذلك ، بالاضافة للبطاقة الشخصية التى حرصت زينات عليها ، بعد استخراجها ، حرصها على عينها ذاتها ، ولا أدل على ذلك من انها تحفظها فى مغلف بلاستيكى، اشترته بشلن كامل، كما انها تدسها تحت فراشها ، وتتأكد من وجودها فى مطرحها ٠

كل فترة ، ليس بسبب المعاش ، والسلام ، ولكن لانها حطتها فى عين عسكرى البلدية بكل ثقة بالنفس لما حاول الاحتكاك بها وابتزازها أثناء شوفه شغلها ، وراح يهددها بسحبها للقسم لكونها بدون بطاقة ٠ فرجع مخذولا وقفاه كالرغيف السخن ، بعد أن مسخرته ، ووضبته بالكلام الشديد ٠

لكن الثلاثة جنيهات لم تكن مسك الختام فى موضوع العلاقة مع رئيس الجمهورية ، فرغم انها استلمت دفعة فلوس لم تكن لتحلم بها طوال عمرها ، وتبلغ قيمتها ثمانية عشر جنيها ، لأن قرار حصولها على المعاش صدر بأثر رجعى ، يحق لها بموجبه أن تتقاضى عن مدة ستة شهور ، ورغم انها عملت الهوايل بهذه الفلوس ، فاشترت طوبا أحمر جديدا أكملت به جدران العشة ، بعد أن ازالت الحجر والصفيح ، وفتحت شباكا ، يدخل منه الهواء والنور الى داخلها بالراحة ، ووسعت على نفسها ، حتى انها اشترت فرخة كاملة ، تلذذت بأكلها ، وحدها ، دون مشاركة مخلوق ، لذة لا تنسى ، خصوصا عندما كانت تدفع باللحم المسلوق الى فمها ، مخلوطا بالأرز المطبوخ ، المندى بشوربتها الساخنة ، رغم كل ذلك .. ورغم التغيرات الجوهرية ، التى طرأت على حياة زينات ، وكان منها أنها توسعت فى حجم البضاعة ، التى تتعامل بها وادخلت عليها أصناف جديدة ، كأقلام الرصاص والمحايات ، الا أن عبده المزين « سلمت يده ، وحفظ الله له نور عينيه » ، وفقا لنص دعوات زينات الصادقة الصدوقة له دوما ، أشار عليها أن تستأنف العلاقة ، وتداوم على ارسال الخطابات للرئيس ، على أن ترتفع فيها نغمة الشكوى ، أكثر ، وتتظلم طالبة زيادة فى المعاش ، بحكم انها ولية وحيدة ، لا عائل ولا معين لها فى الدنيا ، ولا سامع لشكواها غير الله ، ورئيس الجمهورية .

وبصراحة ، فاق الجهد الذى بذله عبده المزين ، فى كتابة الخطابات الجديدة ، كل مجهوداته فى كتابة خطابات المرحلة الأولى ، التى توجت بحصول زينات على المعاش ، وذلك لأن القانون الصادر ، بهذا الشأن كان واضحا ، فيما يتعلق بحق زينات فى المعاش ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ، فالخطابات الأولى كانت مبررة ، لأن زينات لم تكن قد حصلت على المعاش بعد ، أما الآن

فتلبية طلبها سيكون على نحو استثنائى ، وبناء على توجيهات رئيس الجمهورية ، والذى يمكن أن يأمر بذلك عندما يشعر ، من خلال الكلام المكتوب له ، بحقيقة أوضاع زينات ، وظروفها الصعبة . التى تصعب على قلب الحجر نفسه وتفتته ٠

لذلك فان عبده المزين حك قريحته ، حكا شديدا ، ليخرج عصارة قدراته البلاغية ، فى محاولة للتأثير على الرئيس بما يكفى لاصدار الأمر اللازم لزيادة المعاش ، لكن يبدو أن مستوى ما يكتبه كان ضعيفا على نحو أو آخر ، لأن ردا واحدا لم يصل من الرئاسة ، يتعلق بمصير تسعة خطابات ، كتبهم عبده ، على يد زينات نفسها ٠ بهذا الخصوص ، لذلك وقبل سماع زينات للنبأ العظيم بأيام ، كان عبده المزين قد وصل الى قمته البلاغية فى كتابة الخطاب العاشر للرئيس ، ولا يمكن انكار أن زينات ، نفسها ، شاركت بجهد لا ينكر فى كتابة متن هذا الخطاب ، بعد أن ظلت تتباحث مع عبده فى دكانه الصغير ، حوالى ثلاث ساعات ، حتى يخرج الكلام فى أحسن صورة ، وقد اضطر عبده الى كتابة الكلام عدة مرات ، بعد ن ظلت زينات تعيد الصياغة ، وتمد عبده بأفكار جديدة مؤثرة ٠ والحقيقة ان عبده ، رغم كونه طيبا وأميرا جدا ، لم يكن ليصبر ، كل هذا الوقت ، لولا ان الدنيا كانت آخر شهر ، والزبائن معدومة أرجلها على الدكان تقريبا ، ولكن عبده كان يستمتع أيضا بالكتابة ، لانه اكتشف ، من خلالها ، انه يستطيع أن يقول كلاما جميلا ، وحلوا للغاية ، تأثر به هو نفسه ، كما أن نتيجة كتاباته الأولى عززت ثقته بنفسه ، وبقدراته الكبيرة فى هذه الناحية ، وهو أيضا لا ينسى هدية زينات المشجعة له ، والتى كانت على أرض الواقع ، ذكر بط كبير ، ألقمته زينات ، لمدة أسبوع ، قبل تقديمه لعبده ، فولا نائمغا ، عند كل عشية ، حتى ثقل وزنه ، وأصبح فى حجم بجعة تقريبا ، وقد ترافق مع زجاجتى شربات ،

واحدة ورد ، والثانية مشمش ، وعلى أية حال ، كانت الهدية ، على بعضها ، مفاجأة حقيقية لعبده ، الذى لم يتوقع أن تكون فخمة ومكلفة على هذا النحو ·

بالنسبة للخطاب الأخير ، كان عبده قد حاول فى البداية تطعيم الديباجة التقليدية ، التى يكتبها كل مرة ، والمنصبة على الشكر والحمد ، واطراء رئيس الجمهورية ، ببعض آرائه السياسية المتعلقة بالموقف الراهن ، ورأيه فى الأمريكان والانجليز ، ودول الاقطاع المتحالف مع الاستعمار ، وغيره من الكلام الذى كان عبده يحبه جدا ، وقد حاول كتابته ، ليظهر مدى اطلاعه على الصحف والمجلات أيضا ، وكان سيتطرق ، من خلال ذلك ، الى موضوع ، زينات وطلبها المذيل بأمنياتها فى اطالة عمر الرئيس ، وطرح البركة فيه ، وفى عياله ، والدعاء لله ليكفيه شر أعدائه ، ومن يتشمت لهم ·

لكن زينات ، صاحبة الخطط ، كانت تحمل فى رأسها فكرة جديدة للكلام ، فكرة تشكلت من خلال جلوسها ، كل يوم ، امام صور الرئيس ، ومحادثتها · فقد أحبت زينات رئيس الجمهورية جدا ، بعد رده عليها ، وبعد حكاية الثلاثة جنيهات ، وكانت تشعر انه سندها الحقيقى فى الدنيا ، وداخلها احساس بأن صوره تؤنس وحدتها ، وتزيل الوحشة عن نفسها ، عندما تكون وحيدة بالعشة . كذلك قررت أن تكلمه بصراحة ، وتقول له كل ما عندها من كلام تحبسه فى نفسها ، هكذا قالت لعبده المزين ، الذى رفض الفكرة فى البداية ، واعتبر ذلك تدخلا منها فى اختصاصه ، لكنها ترجته ، وطلبت منه أن يتركها على راحتها ، « يمكن ربنا يجيب الطريقة فى المطلوبة » · وكانت تقصد بذلك الخطاب · وعبده ، فى الآخر ، تركها تقول ما تود قوله ، لأنه خاف أن يكون هذا الكلام هو الكلام

الشافى ، الذى سيجلب الفائدة لها ، فيحرمها منها ، وهى الولية المسكينة ، فكتب كل ما قالته زينات للرئيس ، حيث حكت حكايتها من طقطق للسلام عليكم ، ومن لحظة موت أبيها ، وهى صغيرة ، حتى ما بعد ترملها ، وهى ما تزال بنت بنــوت لم يدخل عليهــا عريسها ، الذى مات مع صاحب الدكان الذى كان يعمل عنده فى حريق ، كما روت له كيف انها ظلت بعد ذلك مع أخيها الوحيد . لكنها ، بعد أن تزوج ، وبقى مربوطا من رقبته بكومة عيال ، تركته ، وتركت الخناق ، كل يوم والثانى ، مع أم العيال ، وراحت تعيش لوحدها فى العشة ، وحكت له أيضا انها حاولت أن تشتغل أكثر من مرة ، دون جدوى ، وكان آخر هذه المحاولات ، التقدم لمسك شغلة عاملة نظافة فى المدرسة القريبة لسكنها ، لكنها رفضت . لأنها لا تعرف القراءة والكتابة ثم بعد أن شكرته ، على الجنيهات الثلاثة ، بكلمات كثيرة مؤثرة ، وكذلك على الثمانية عشر جنيها ، ودعت له من قلبها ، دعــاء مناســبا ، قالت له : « لا مؤخــذة ، وبلا صغرة ، الثلاثة جنيهات لا تكفى شيئا ، لأن كيلو اللحم دخل سعره على الجنيه ، وكيلو الترمس بقى بنص الجنيه » ، ثم فوق ذلك ، فهى تشترى علبة الدواء ، الذى نصحها الحكيم بالمداومة عليه ، بالشىء الفلانى ، وحكت له أيضا أنها وحيدة ، وأنها تستحى ان تمد يدها لمخلوق على الأرض مهما كانت الظروف ، لذلك فهى تطلب منه ، تحديدا ، طلب الأخت من أخيها ، والعيلة من أبيها ، وصاحب الحاجة من القادر المستطيع » ، أن يزيد معاشها قليلا ، بحيث يكفى لســد مطالب الدنيــا ، ثم طلبت من عبده المزين أن يحكى للرئيس ، بالتفصيل ، حكايتها يوم خروجه ، فى موكب صلاة الجمعة ، وتصرف العسكر ، الذين بلا أصل ولا شرف ، معها ، لكن عبده المزين رفض ، رفضا باتا ، هذه النقطة ، بالذات ، لأنها قد تؤدى الى عدم وصول الخطاب الى رئيس الجمهورية ، اذا ما فتحه واحد غيره وقرأه ، واقترح ان يضيف فى نهاية الكلام بعض

الأبيات الشعرية ، التي ما زال يحفظها ، من ايام الابتدائي . لكن زينات رفضت ، وقالت له ان الرئيس سوف يفهم الكلام ، على حاله. ولا داعي للشعر ، فاكتفى عبده بخاتمة انشائية ، أكد فيها ان الشعب كله وراء القائد البطل في وقوفه ضد الاستعمار والرجعية .

زينات . ارتاحت للخطاب جدا ، وكانت واثقة أن الرئيس ، لابد وأن يرد عليها ، ويتخذ اللازم بالنسبة لطلبها ، لأنها كتبت له كلاما ما بعده كلام ، وكانت تحلم أن يزيد المعاش الى خمسة جنيهات ، بل وكانت قد وضعت ، في مخيلتها هيكل خطة جديدة لحياتها ، على ضوء ذلك ، فثمة هاجس داخلي ، يتنازعها ، بأن الخمسة جنيه لو اكتملت في يدها ، أول كل شهر ، لا بد وأن تكون نقلة كبرى ، ستغير حياتها ، بل وربما ساهمت في تحقيق حلمها الدائم ، ذلك الحلم ، الذي لا يغيب عنها أبدا ، بالزواج وأن تصبح أما . صحيح أنها ، في الواقع ، بعيدة عن ذلك الحلم ، لأن العمر جرى بها ، وتخطت سن الطلب ، ولأنها حتى عندما كانت في سن الطلب ، بعد وفاة عريسها ، لم ينظر اليها صنف مخلوق ، لأنها — يا حسرة — لا مال ولا جمال ولا يحزنون. لكن الجنيهات الخمسة ربما تحرك واحدا للتفكير بها ، والحقيقة ان زينات كانت حاطة عينها على كناس عجوز تشوفه مرات ، يكنس الشارع العمومي ، الذى تجلس بالقرب منه لتبيع ، وقد عرفت منه انه هج ، وترك امرأته وعياله ، منذ سنوات طويلة ، ونزل مصر ، دون أن يعرفوا له قرارا ، حتى الآن ، وكانت نظرات خبيرة منها كفيلة بأن تخمن امكانية خروج عيل من صلبه . وفكرت ان الجنيهات الخمسة ، قد تغويه بما فشلت الطبيعة ، التي شكلت معالم وجهها وجسدها ، في اغرائه بها .

لكن الدنيا غرورة وكذابة ، وما دامت لأحد ، هكذا ظلت زينات تردد من ذلك اليوم المشؤوم ، الذى جاءها فيه عبده المزين

بالنبأ العظيم ، بعد أيام من ارسال الخطاب ، الذى اشتركا فى كتابته ، الى الرئيس . فلقد زاحت له فى الدكان ، لتسأله ان كان قد وصل رد من رئيس الجمهورية ، لانها كانت تكتب عنوانها، عنوان دكان عبده ، لأنه واضح ومفهوم ولا يمكن أن يتوه عنه البوسطجى — لكن المزين ، الذى انتظرته زينات بجوار دكانه ، ما لبث أن برز من آخر الحارة ، ولونه مخطوف وأصفر كالكركم ، وهو يلطم كالحريم ، بل ان زينات ساعتها أحست ان المياه لا بد وأن تكون قد سابت بين وركيه ، خصوصـــا عندما رأته يندفع كالممسوس الى الراديو ، ليديره وهو يصرخ ، مات الرجل ، مات الرئيس يا عالم ، الرئيس توفى يا ناس .

ساعتها لم تشعر زينات الا ويدها تمسك بتلابيب عبده ، وقد تفجر فى داخلها غضب غريب ، غضب هائــل ، جعلها تشتمه ، وتقول له : « اخرس قطع لسانك .. قطع لسانك يا عبده ، ارمى من بقك يا عبده الكلام الأسود ... » .

لكن أهـالى الحارة كلهم كانوا قد تجمعوا حولها ، كانت نظراتهم تنطق بالحقيقة المرة ، التى رفضت زينات تصديقها ، مثلما عبرت عن هذه الحقيقة الدموع ، التى سالت على كل الوجوه ، كما لو كانت تسيل بفعل ضغط على زر أوتوماتيـكى ، أما الشـعور المنكوشة التى تساقطت عنها طرح النساء ، وأكف الرجال ، التى كانت تخبط على بعضها فى حسرة ، فقد كانت كفيلة بأن تجعل زينات توقن أنها فى علم وليست فى حلم ، فما كان منها الا أن صرخت بالصوت الحيانى ، وصاحت صيحة عظيمة سقطت بعدها مغشيا عليها .

زينات ، ساعة الجنازة ، عملت حاجات كثيرة . فى الأول ، فضلت تدور على الحوارى ، وتلم النسوان ، يلطمن ويصوتن ، ثم

سارت وسطهن جميعا ، حتى وصلت لسكة الجنازة فى الشارع العمومى الكبير ، وهناك رأت زينات خلقا كثيرا ، كأنها فى يوم الحشر ، فحوقلت ، وعرفت ان الرئيس كان عزيزا وغاليا . عند عيال ونسوان وجدعان كثيرين ، فصعب عليها أكثر ، وبقيت تشهق وتنهنه كما الصغار ، وترجع تصوت وتندب وتقول : « يا خسارة شبابك يا عينى » ، « اتخطفت قبل الأوان يا أمير » . ألف رحمة تروح لك يا حبيبنا كلنا ، يا حبيب الدنيا كلها » .

ثم فجأة تذكرت الخطاب والمعاش ، وحاولت تصور ما سيكون من أمرهما بعد ذلك . ولما أعياها الفكر السريع ، ولم تصل الى تصور معقول للموضوع ، اهتاجت وتركت النسوان ، وأخذت تركض باتجاه النعش ، بينما تتخابطها الأكتاف والأيدى والرؤوس ، كانت قد قررت أن تلقى نظرة عليه عن قرب ، وان تلامسه بيدها . وعندما كان النعش يكبر فى عينيها أكثر وأكثر ، وتتضح ملامحه ، وتدرك انها اقتربت كثيرا . فترمى بنفسها ، وسط الناس بقوة ، وتدفع هذا وذاك غير عابئة بما يمكن أن يجرى لها ، وعندما أصبحت قاب قوسين أو أدنى من النعش ، بدأت الأيدى تمتد اليها . باللطمات لتمنعها ، لكنها كانت تعاود الاقتراب ، مرة أخرى ، فيمنعونها ، ثم فجأة شعرت بطعم الدم المالح على شفتيها ، وأحست بأنها فقدت أنفها تماما .

الجنون الذى انتاب زينات ، هذه اللحظة . يقول البعض انه حقيقى ، أما هى فتقول ، عندما تستعيد هذه اللحظات ، وتتجمد فى عينيها نظرة حزينة هادئة ، أنها كانت ساعتها قد تذكرت طول انتظارها يوم موكبه ، بعد صلاة الجمعة ، وما جرى لها وقتها . لذلك وبدون شعور منها راحت ترد على اللكمات والضرب ، الموجه لها ، بضربات أقوى ، كما انها غرزت أسنانها فى الذين ضربوها قدر استطاعتها .

أما فى محضر القسم ، الذى حرروه لها ، فقد قالت انها عضت الرجل السمين ، أبو قميص أبيض حرير ، فى يده ، لانها شعرت انه يبتسم فى الجنازة ، وانها نظرت الى وجهه عندما رمى بعصاه صورة الرئيس ، التى كانت تحملها ، فرأته ينظر ناحيتها ويبتسم .

زينات ، التى ما فتئت تردد ، بينها وبين نفسها ، « دنيا غرورة وكذابة » يقال ، انها بعد تحرير هذا المحضر لها بسنوات فى القسم ، احتجزت لأيام فى قسم بوليس آخر ، بسبب اشتراكها فى الهوجة ، التى جرت وقتما رفعت الحكومة ثمن العيش ، وأنها كانت تردد وقتها « ألف رحمة تروح لك يا حبيب الناس كلها » . بالاضافة الى كلام كثير لا داعى لذكره هنا .

أم شحتة التى فجرت الموضوع

بعد مرور أسبوع على تلك الحوادث الفظيعة ، جلست أم شحتة ، كعادتها ، ظهيرة يوم شتوى مشمس ، تغمس مشطها العظمى ، المتبقى من أيام زفافها ، فى كيروسين علبة السالون الفارغة ، وتسلك شعرها ، بحثا عن قملة غريبة تسللت اليه من هنا أو هناك .

رمقت ديكها الأحمر الصياح فخورا بدفء الشمس ، وأصابعها تحيل الخصلات الجافة جديلتين صغيرتين ، وفكرت متوجسة : « ترى .. هل سيتركونه يعود من القشلاق هذا الخميس ؟ » .

أما هو ، حسين دياب ، فكان هذه الأثناء جالسا فى غرفة التحقيق ، يقرأ ما أدلى به من أقوال ، ويفكر مشحونا بأحداث الأسبوع الفائت ، تضايقه رائحة غياره الداخلى الملوث بآثار احتلامه فى الليلة الماضية ، يمرر أصابعه على وجهه ، متحسسا التضاريس المستجدة على صفحته ، التى تركها المخبرون عليه بميدان رمسيس وحجز الشرابية ، أثناء وبعد الحوادث ، كهدية بسيطة تؤكد أن الشرطة فى خدمة الشعب . وكان يحاول ، من قراءته للسطور ، استنتاج الصورة التى سيكون عليها قرار اتهامه ، بعد أن استنطقوه ثلاثة أيام بلياليها .

والحقيقة . أن حسين دياب كان كمن أفاق لتوه من حلم غريب ، لم يتيقن واقعيـة ما يدور حوله بعد ، فصور القبضات العنيفـة المضمومة فى غضب ، وألسـنة الحرائق المندلعـة فى القطارات . والمحلات ، والدكاكين المستباحة تمر برأسه كشريط سينمائى طويل ، وتختلط بسطور استجوابه ، وكان مشهد النسوة المتشحات بالسواد ، كقطيع ضخم من عجول البحر ، وهن يزعقن ويصرخن ، يأتيه بقوة لا يفوقها الا قوة صوتها هى ، تلك المرأة التى ألهبت أفكاره على نحو لم تفعله أية امرأة أخرى من قبل ، وكانت بالنسبة له ، فى تلك اللحظات ، بمثابة اكتشاف مذهل مفاجىء ، لا يمكن توقعه أبدا ، وهو الذى يعرفها جيدا ، منذ سكن الحارة ، ولم يكن يتوقع وهو الذى تعودها كانسة ، غاسلة للملابس ، بائعة للبيض ، ومجالسة للنسوان على عتبات البيوت ، ان تكون على هذه الصورة ، والحال ، اللذين كانت عليهما أثنـاء الحوادث . تتألق فى الشوارع ، وتطلق من حنجرتها الحديـدية صواريـخ مدوية ، تتبدد وتضيع فيها أصوات الجميع ... جميع من كانوا وقتها هناك من سكان الوادى ، الذين تجمعوا حولها من الحارات والدروب الكثيرة . وبرغـم محاولاته المتكررة لشحذ كل طاقاته الصوتية ــ هكذا يذكر الآن ــ لكى تخرج كلماته قوية واضحة ، فان صوتها ظل هو الأقوى ، حتى فى اللحظة التى تصور فيها أن الجميع سيرددون وراءه « لم كلابك يانبوى » عندما بدأت عساكر الداخلية بالهجوم ، لكنه لم يسمع غير زئير واحد ، يسيطر على جميع الأنحاء ، يردد هتافها « قوم ياوحش ، شوف الجحش بيعمل ايه » .

لا ، لم يقم بالتحريض مثلما ظنوا . لقد حاول ، ولكنه فشل : وهو يعترف لنفسـه ، فى هذه اللحظات ، أنها هى التى خططت ونجحت فى لم الناس ، وهى التى ذهبت بهم هنا وهناك ، بلحمها وشحمها الكثيرين ، رغم ما يعترى قدميها من أوجاع تعاودها ،

ويعرف جيدا أنها تحيلها ، أياما طوالا ، جثة هامدة لا تقوى على مبارحة فراشها • لقد صدمته ، فى اليوم المشهود ، بعنفوانها وقوتها الرهيبة ، حتى أنه يظن الآن أن الآلام فى كتفه اليسرى سببها لكزتها السريعة ، عندما أوشك هجوم الأمن المركزى ، لتشير عليه بالهرب قائلة : « ارجع أنت يا مضروب » • انه يتذكر الآن ، أثناء قراءته لسطور اتهامه ، نظراتها القوية المشفقة ، التى قرأ معناها جيدا ، وأشعرته بالغربة وسط تلك الجموع المتدفقة • « ثمة خطأ فى المسألة ! » هكذا فكر ، وأخذ يهز فخذيه هزات عصبية خفيفة ، « كان من الاحرى أن تكون هى فى هذا المكان بدلا منى » •

- ٢ -

فكرت وهى تدس أصابعها فى مؤخرة العتقية البياضة ، التى حاصرتها فى زاوية غرفته ، أن « المضروب » طال حبسه أكثر مما يجب : « ضربوه ، أمر مفروغ منه ، ولكن لماذا استبقوه حتى الآن » •

تطلعت فى كتبه وأشيائه المبعثرة فى أنحاء الغرفة ، وأخذت تمسح ، بوريقة مهترئة ، الكتب والكراسات ، التى برقشتها الفضلات الطرية لدجاجاتها ، وترفعها لتضعها على مكتبه برفق • تأملت ماوتسى تونغ ، المنكب على وجهه بين صفحات مختاراته . ودققت فيه قليلا ، وتهيأ لها أنه يشبه المرحوم أبو شحتة ، تحسرت وترحمت ، وأعلنت لنفسها « يخلق من الشبه أربعين » • لكنها ظلت حائرة ، لماذا جاؤوه . بهذا العدد الكبير من العسكر فى « البوكس » ؟! لماذا فتشوا غرفته « المخروبة » على هذا النحو الدقيق ، كمن يبحث عن ابرة فى كومة من زمال ؟! ، وخطر لها خاطر : « يمكن المضروب بيشتغل فى الحشيش ؟ » • • والا لماذا

« تكبسه » الحكومة بكل هؤلاء العسكر آخر الليل ؟! . لكن هذه الفكرة تبخرت من دماغها سريعا ، فهى تعرفه ، تعرف « المضروب » حسين دياب معرفتها لضناها ، ونور عينيها ، شحتة ، وتعرف انه قطة مغمضة لا حول له ولا هم الا مذاكرته وكتبه . لعنت الحكومة و « البوليس » ، لتدخلهم فى كل كبيرة وصغيرة فى حياة الناس ، وحبسهم لحسين الغلبان ، بصوت لم يسمعه الا الديك المنتظر قريبا منها ، بينما كانت تهش الدجاجات بعيدا حتى تغلق باب الحجرة بوزقة حشرتها بينه وبين الافريز .

والحقيقة أن أم شحتة ، منذ بداية الحوادث ، وحتى هذه اللحظات ، حيرها أمر حسين دياب ، كلما فكرت به ، وظنت أنها لم تكن تعرفه أبدا ، وهى التى كانت تراه ذاهبا ، كل يوم ، من حجرته الى الجامعة ، ومنها الى حجرته ، يحييها كلما عبر ببابها ، ويطلب منها أن تغسل ملابسه ، وتنظف حجرته ، ولقد أدهشها اصراره على متابعة السير معهم ساعة « الهوجة » واهتمامه المفاجىء بالموضوع ، كما لو كان يخصه هو ، وهو « العيل » ، المعتمد على أبيه فى أكله ودخانه ومصروفه ، الذى يزيد فى الشهر على ما يعطيه الجيش لشحتة ، وما تبيعه هى من بيض ، ولم تكن تتوقع أن الأمر يعنيه مثلما يعنيها ،وهى التى ضاقت الدنيا فى وجهها ، بعد أن ظلت تفكر وتحسب ، وتعيد الحسبة بلا جدوى ، لتدبر المعيشة ، بعد ان مست نار الغلاء كل شىء ، وجرت فيه الجارية ، حتى الخبز والأرز ، قوت أيامها ، طالته النار ، فبكرت ، وجرت لسحتوت البقال تشتكى اليه ، وترجوه أن يتصرف ، ويسأل الحكومة والتموين عن حل للموضوع .

- ٣ -

صحا من نومه على زعيقها فى الحارة ، اخترق صوتها الجهورى أذنيه ، كما النفير ، تصور أولا أنه يحلم ، لكنه سرعان ما اكتشفها ، هى ، أم شحتة ، بصوتها « الكونترباصى » الرهيب ، تعلن : أن « العيشة صارت مرة ، ودين النبى مرة » . كانت كنمرة جائعة أطلقت من قفص بعد حبس طويل ، لا تتوقف عن الشتائم والسباب ، والدعاء على الحكومة ورئيسها ، والتموين ، و «البوليس » ، وكل من لف لفهم ، دعوات حارة ظنت أنها ستصل السماء . قفز من سريره ، ونظر من شباك غرفته العالى المطل على الحارة حيث كانت واقفة عند سحتوت البقال ، ورآها وحولها لمة من النسوان والعيال ، وسحتوت نفسه يقف أمامها بلا حراك ، كمذنب متهم ما انفكت تستجوبه ، وتوجه له الأسئلة ، هازئة من موقفه المتخاذل ، مشيرة للحيته : « مؤمن لا يعرف الدين ، مؤمن لا يعرف الحق والرحمة ، مؤمن ولا يقف فى وجه الباطل » .

ظل هو من موقعه يرقب « الهيصة » دون أن يفهم شيئا من الموضوع ، فصوتها ، وهى تصيح : « رغيف الخبز بقرشين ؟! والله حرام يا سحتوت » ، يختلط بصوت سحتوت ، الذى أخذ يقول : « مثلى مثلك ، لا أعرف شيئا عن الموضوع » ، معلنا تبرمه وضيقه من اللمة التى صارت على الريق ، قبل الاستفتاح . لكن أم شحتة تعلن قرارا مهما ؟ ستذهب الى مكتب التموين ، ستتكلم مع الحكومة ، وتطلب من موظفيها أن يتصرفوا فى الموضوع .

عاد ليستكمل النوم اللذيذ ، الذى ما يزال يدغدغ أوصاله صباح ذلك اليوم الشتوى البارد من شهر يناير . كانت صورتها وهى تغادر الحارة ، بجلبابها الأسود ، وطرحتها المحكمة حول

رأسها ، ووراءها جمع من عيال ونسوان الحارة يلوحون بقبضاتهم في غضب ، يجيئه في حلمه ، كغيمة سوداء ضخمة ناءت بحملها العواصف . ولم يستيقظ من نومه الا وقت الظهر ، عندما هب مذعورا ، لأنه ظن أن القيامة قد قامت .

- ٤ -

طوال « سكتها » الى شارع عشرة ، حيث مكتب التموين ، كانت تتحدث مع نفسها ، ومع الناس بصوت مرتفع ، يسمعه الرائح والغادى ، وكانت تتوقف أحيانا لتلتقط أنفاسها ، فالمشوار طويل ، وخطواتها ثقيلة ، لكنها تسير ، وستصل ، كما كانت تقول للذين استوقفوها وأشاروا عليها بالعودة . ووقف معها الذين جذبتهم اللمة ، ولم يكونوا قد عرفوا الأخبار بعد ، حيث الوقت ما زال باكرا ، ولم تكف عن اعلان : « البلد خربت ، سنموت قريبا من الجوع » ، لأولئك الذين فتحوا شبابيك دورهم مدهوشين . قالت رأيها بوضوح ، منظرة للموقف : « ناس هايصة ، وناس لايصة ، انظروا راكبى السيارات ، انظروا الذين يقيمون الأفراح والليالى الملاح ، ويعلقون الكهارب بألف لمبة وأكثر ، انظروا للذين يأكلون كل يوم فتاء محلولة ، ونحن ننام على الجوع ؟! ، انظروا نسوان السينما والتلفزيون ؟! انظروا امرأته ، أقول لكم انظروا امرأته ، كيف تلبس ، وكيف تخرج ، وسيرتها على كل لسان ؟! تقول ذلك ، والناس حولها يتحسرون على حالهم ، ويؤمنون على كلامها ، ويزيدون من عندهم تفاصيل أخرى عديدة .

جلست على الرصيف تريح قدميها المتعبتين ، تدلك بطة ساقها اليسرى التى تشنجت ، وتعيد احكام طرحتها على رأسها ، ودموعها تطفر غيظا وحقدا . كان الجمع الصغير قد بدأ فى التزايد الى الحد الذى وصل فيه لبضع مئات ، برغم الصباح الشتوى

الباكر ، وبرودته المؤلمة ، وسرعان ما توجه الجميع بخطى واثقة الى مكتب التموين ٠

ـ ٥ ـ

« لم أذهب الى مكتب التموين » ٠ ارتاح لأنه أدلى للمحقق بهذه الحقيقة ، التى يعرفها مثلما يعرف حقيقة ذهابها الى هناك ، فلقد انتزعته لدى عودتها من أحلامه ، واستيقظ على صوتها يلعلع : « ابن الكلب ٠٠٠ بعد ساعتين من وقوفنا فى انتظاره ، جاء ليقول لنا من طرف أنفه أن لا علاقة له بالموضوع ؟! تكلم ببرود تيس ، كما لو كنا عبيد أبيه » ، « جسمى تكسر من التعب ، والله يا ناس تعبت ، قمت من البدرية . قبل أن تطيل الشمس الندى ، وانتظرت كل هذا الوقت ٠٠ ليقول لنا ٠٠ ابن الحرام ٠٠ لا علاقة له بالموضوع » ٠ ثم فجأة أطلقت صوتا ممتدا ، انتشر فى أنحاء الحارة ، وأخذت تلطم وتولول : « يا خرابى ، يا خرابى يا ناس » ، هنا بدأ هاتف يهتف بداخله : « جاء وقتك يا حسين دياب ، حان وقت العمل ، الجماهير فى ثورة ، وهى فى حاجة اليك ، فهلم لقيادتها ، قل لهم كل الحقيقة ، حدثهم عن الصراع الطبقى ، والتغلغل الرأسمالى ، ودور البروليتاريا ، وما يحدث فى البلد الآن ، قل لهم لماذا الفقراء فقراء ، والأغنياء أغنياء ، ولا تنس ان تربط ذلك بالمسألة الوطنية ، وقضية الاحتلال ، ودور الأميركان فى المنطقة » ٠

قرر أن يحدثهم بأشياء أخرى كثيرة ، وفكر أن لغته معهم يجب أن تكون سهلة ، وكلماته بسيطة يفهمها الجميع ، ويمس من خلالها الموضوعات الرئيسية ٠ لكن أم شحتة لم تمهله حتى ينهى تبوله ، ويرتدى قميصه وبنطاله ، ليقول ما عنده ، فلقد قررت

الذهاب الى المديرية والمحافظة ، للتكلم مع الموظفين الكبار فى الحكومة ، الذين لا بد أن ينهوا الموضوع . فالذى حدث لم يكن من المتصور حدوثه أبدا ٠

ها هو يقرأ اعترافه المثبت فى محضر التحقيق ٠ لقد ذهب معهم الى المديرية بالفعل ، لكنه كان واحدا مثل كل الآخرين ، محض فرد مشارك ، فهى لم تفسح له فى المجال ليتكلم ، وكانت تصيح صارخة ، بين الحين والحين ، ومن خلفها كل الذين كانوا معها « يا خرابى يا عرابى » ، كما انها هى التى بصقت أولا على عساكر « البوليس » ، ولعنت أصحاب المحلات الكبيرة ذات الواجهات الزجاجية اللامعة ، ولم تتوان عن استخدام أصابعها وساعدها برسم اشارات وحركات بذيئة لراكبى السيارات « الملاكى » ، الذين أخرجوا رؤوسهم من نوافذها ، ينظرون بدهشة، وهى التى كانت تختار الأزقة والحارات ، لتلم الناس وتجمعهم فى طريقها الى المديرية ٠ أما هو فلم يكن الا فردا ، عليه أن يعترف ، محض فرد بسيط يسير وراءها مثلما يسير الآخرون ٠

– ٦ –

قالت لجارتها الصغيرة، التى رافقتها لتبيع البيضات الثلاثين، التى نفحتها بهم البياضة وأخواتها ، وتشترى لحم الرأس الذى يحبه شحتة : « لو تركوا الغلبان هذا النهار ، وكان له نصيب ، فسأعشيه مع شحتة ، فهو غريب عن مصر ، آهله فلاحون من طنطا شى لله يا سيدى السيد ... ولكن فى بالك ، هل سيتركونه ؟ ٠

تنهدت الصبية ، المكتوى قلبها بغرام حسين دياب الميؤوس منه ، « يتركونه أو لا يتركونه ، ماذا تستطيع هى أن تفعل ؟! لقد حاولت أكثر من مرة أن تلفت نظره ، وتعمدت أن تطلق

شعرها ، وهى تنشر الغسيل على السطح ، ولكنه كان يجلس داخل غرفته لا يرفع بصره عن الكتاب ، حتى عندما غنت بغنج « جميل وأسمر » ، لم يكلف خاطره الالتفات بنظرة واحدة اليها . وهى التى ترتدى القمطة والجلباب » .

لم ترد البنت المشمودة للواجهات الزجاجية ، التى تتكدس فيها الفساتين الملونة ، ومساحيق التجميل ، والحلى الزائفة ، لكنها قالت فجأة : « ولماذا تبقيه الحكومة عندها ؟! سيكلفها أكل وشرب ونوم ؟! غدا تتركه لحال سبيله » .

لكن أم شحتة ، باتت لديها قناعة خفية بأن الحكومة لن تتركه لحاله ، طاف برأسها هذا الهاجس ، وهى تتذكر ملاحقة المخبرين له أثناء « الهوجة » ، كانوا يحيطونه من كل جانب ، ويتابعون خطواته ، وهى نفسها قالت له أكثر من مرة : « ارجع أنت يا حسين » ، لكنه لم يرع ، ولم يستمع الى قولها . بصقت على الأرض مغتاظة ، وقالت لحالها : « غريبة والله هذه الحكاية ! » .

– ٧ –

أوشك أن يطلق ضحكة عالية، وهو يتذكر الذهاب للمحافظة. لقد ذهب معها ، وظل الى جانبها لحظة بلحظة ، لكنه يعرف جيدا أن وجوده مثل عدمه ، وهذا ما لم يفهموه أبدا فى التحقيق . كان كالبرعم الصغير أمام شجرة عتيقة ، حتى أنه لم يستطع أن يقول شيئا للمحافظ ، عندما خرج ليواجه الجموع المحتشدة ، وفجرت هى كل ما تفجر ، بعدما يئست من كلام الرجل الذى وقف فى شرفة المبنى ، وسط بطانة من الموظفين ، ليقول عبارات لم تعجبها ، فردت عليه باختصار من فتحتى أنفها الضخم : « قال سينظر فى الموضوع ! .. وعودوا لبيوتكم الآن ، أفضل لكم ؟! » وكررت كلماته محاولة تقليد صوته ، هازئة منه ، ومن كرشه ، وعويناته

السوداء لاعنة آباءه وجدوده ، وقررت العودة ، ليس الى البيوت الفقيرة التى أشار اليها المحافظ ، والتى « لا يعرف منظرها ، ولا ما يدور فى داخلها » كما قالت ، ولكن الى الشوارع والطرقات الفسيحة ، التى أمضت فيها مع الآخرين النهار بطوله ، واليوم التالى ، ففى البداية لوحت ساعدها المتين فى حركات مبهمة . رافضة ، فهمها الجميع ، وبدت فيها كمن يقص شريط الافتتاح لمشروع ضخم ، فهجموا ، مداهمين كل الأماكن والمحلات ، التى ما كانوا يحلمون يوما بولوجها قط ، كقطيع وحشى سرت فيه حمى غريبة ، ولم تمض ساعات ، الا وكانت الواجهات الفخمة المتتالية ، وما خلفها ، فى خبر كان، حتى محلات الألعاب الرياضية ، والأدوات الطبية ، والآلات الموسيقية ، باتت عارية كأرض حطت عليها جحافل الجراد فى هجوم مفاجىء ولقد شاهدها بأم عينه ، هو ، حسين دياب ، تخرج من « جروبى سليمان » وهى تعض بأسنانها قطعة « جاتوه » ضخمة وتمسك بيديها قنينة « بلاك اندوايت » موشومة، حتى أنه كاد ينقلب على ظهره من الضحك ، برغم كل تفاصيل ذلك اليوم العصيب ، عندما رآها ، بجلبابها الأسود وطرحتها المتهدلة على كتفيها ، حاسرة الرأس ، تفتح الزجاجة ، تعب جرعة كبيرة منها ، وتسارع بافراغها على الأرض ، بعدما اكتشفت أن مذاقها حاد ، وليس حلوا كما ظنت .

حاول أن يركز ذهنه ، ليستكمل قراءة السطور ، متهربا من شريط الحوادث الذى ما انفك يعبر رأسه ، ويطن فيه كزنبور نحل ، حتى يتبين الثغرات ، ومواطن الضعف فى استجوابه : ليتمكن من تقديم دفاع جيد فى المحكمة . كان يعتقد أن حادث القسم هو مسمار جحا الذى سيدقونه فى قرار الادانة ، برغم نفيه المتكرر لمشاركته فيه ، لقد تمنى فى قرارة نفسه ، مرات ومرات ، أن لو كان وقتها هناك ، مشاركا فيه ، فهو من أبرز

الحوادث التي وقعت وأطرافها ، والفكرة الشيطانية التى نبتت فى رأس أم شحتة ، لم يكن من الممكن أن تخطر بباله أبدا ، وقد جن جنونه اعجابا بها ، عندما حكت لأهل الحارة تفاصيلها فيما بعد ، لأول مرة . كان يظن أن الوقت ما يزال مبكرا على مثل تلك الأمور ، والأساليب ، « فهذه الجماهير العزلاء البسيطة » والمطحونة، التى لا يمكن أن تواجه العصابات المنظمة ، الممثلة لمصالح الدولة ، المعبرة عن الطبقة المهيمنة ، فهى ما زالت محدودة الوعى ، ولم تنتظم بعد فى أشكال ، وأطر سياسية ، تخوض من خلالها نضالات حقيقية » . ولكن أم شحتة فعلتها ، فخططت لهجوم مضاد على قسم الشرابية ، بينما كان يبيت عند زميله حسنى عبد المجيد . واستطاعت أن تفاوض ثابت الحانوتى على نعش قديم ، ملأته مع الأولاد بالطوب والحجارة ، وغطته بملاءة نزعتها عن فرشتها البائية، وحمله الرجال ، وساروا به فى الدروب مكبرين موحدين : « الله أكبر ، لا اله الا الله » ، والنسوان خلفهم يبكين ، ويلطمن خدودهن حتى بلغ الموكب باب القسم ، فألقوا بالميت المزعوم أرضا، وفتحوا النعش ، ليطيروا وابلا من الحجارة ، على مبنى القسم ومن فيه . كانت مباغتة ما بعدها مباغتة ، وخدعة ما بعدها خدعة أسفرت عن « بطح » ضابط بنسر ، فى رأسه ، وثلة من عساكر القسم ومخبريه . ولقد أقسمت له أم شحتة ، بسرور وانبساط ، انها رأت المأمور « شخصيا » يبول على نفسه من الخوف ، وهو يجرى محاولا الاختباء . كما رددت بتلذذ ، لكل الذين وقفوا يسمعون القصة ، ومنهم هو، حسين دياب ، كيف استطاع المهاجمون جميعا ، أن يفروا قبل أن يفيق رجال القسم من عنف الصدمة ، ويبدأوا بفتح النار ، وقاطعها عباس « الصرماتى » قائلا ، أنها كانت تطير فى الدروب والحوارى ، كرخ خرافى ، هاربة بمن معها ، وأضاف أنها جرت جرى العفاريت الزرق ، وأقسم أنه لن يصدقها ، بعد تلك الواقعة ، اذا ما اشتكت من آلام قدميها .

ما أذهل حسين دياب ، من وقتها ، وحتى هذه اللحظة ، التى يجلس فيها بغرفة التحقيق هو البساطة الشديدة التى تمت بها العملية ، والنجاح الذى كللت به ، حيث لم تسفر عن خسائر تذكر ، ما عدا فقدان « زنوبة » رزة ابن عباس الصرماتى ، بعد أن انخلعت من قدمه أثناء الهرب ، ولم يتسن له انتعالها مرة أخرى ، والخوف والرعب اللذين أصابا جميع من فى القسم • والذى يذهله أكثر ، الآن ، هو اختفاء أم شحتة ليلة كاملة بعد الحوادث ، عرف منها فيما بعد أنها قضتها عند أختها فى قرية بالجيزة ، وعدم عودتها الا بعد تيقنها من هدوء العاصفة ، وهذا ما لم يفطن اليه هو ، فنام مطمئنا فى حجرته ، يقرأ ويفكر ، محاولا تدبر ما حدث ، وما يمكن حدوثه بعد ذلك ، ليجيئوا ويأخذوه بعد ثلاثة أيام من هدوء الأحوال ، بعد أن فتشوا حجرته ، وهى نائمة فى حجرتها ، يسمع شخيرها ، ولم تستفق ، وهى صاحبة النوم الثقيل لكثرة ما تلتهم من فحول البصل ، الا بعد أن أخذوه ، ولقد وصله صراخها ، وعويلها عليه ، عندما كانت السيارة تبتعد عن الحارة ، فى طريقها الى « اللاظوغلى » •

كان قد أتى على سطور التحقيق كلها • فكر قليلا قبل أن يوقع • هم باضافة عبارة « أم شحتة التى فجرت الموضوع » ، لكنه اكتفى بكتابة اسمه ، فقط ، حسين دياب •

بسمة المـوت

ـ ١ ـ

وقفت فى مكانى متسمرة على الرصيف . والابتسامة الغريبة على الوجه تتضاءل شيئا فشيئا مع حركة القطار المتزايدة ، الابتسامة التى لم أرها طوال عشر سنوات للحظة .. لا بل لأقل من المليون من اللحظة ، لزمن لا يحسب بأبسط وحدات الزمن .. خلت أنى أحلم ، المبانى والناس والقطارات والنبتة الخضراء الوحيدة فى أصيصها على الرصيف .. كلها فقدت وجودها المألوف .. وأحسست باحساس لم أشعر به من قبل ، غير تلك المرة البعيدة ، التى أجريت لى فيها جراحة اللوزتين .. وأنا أعد الرقم الرابع بعد حقنة البنج .

رفعت يدى .. تحسست ملامح وجهى .. سألت عابرا أمامى عن الوقت ، كنت أحاول التشبث بالزمان والمكان .. مرت أمامى العربة الأخيرة للقطار .. تحولت الابتسامة التى أراها للمرة الأولى منذ عشر سنوات ، والكف المرفوعة بالتحية الى نقطة صغيرة سوداء .. تتلاشى . آه .. لقد رحلت خالتى أم سامية .

ـ ٢ ـ

عرفت الخالة أم سامية منذ حوالى عشر سنوات ، سامية ابنتها وأنا تزاملنا منذ بداية مرحلة الدراسة الاعدادية ، كانت

الأيام تتوالى ، ويزداد معها حبى وتعلقى بها ، وكنت معها ـ ولا أدرى كيف ـ أشعر بقوة تملؤنى . وباطمئنان نفسى ، ولقد كنت فى البداية أكرهها ، غاظنى منها ضحكها الدائم ·· وسخريتها العارمة من كافة الأشياء ، مرة شبهتنى بالارنب بوجود البنات ، غضبت وبكيت بحرقة ، ولكنها سرعان ما اعتذرت لى دون ان تقتنع بذلك ، وهى تسالنى بدهشة : وهل مثل هذه الأشياء تدعو للغضب !؟ ·· وأيضا البكاء ؟!! سامية ·· دمها خفيف جدا هذا ما أظن انه حببنى فيها دائما ، كانت جذابة ذات مظهر وقور لاينم عن شخصيتها أبدا ، ولكن عندما تبدأ فى الكلام ويرتفع حاجباها ، ويتمدد أنفها الطويل حتى لتظن انه سيسقط فى فمها ، عندما يحدث ذلك تتحول رؤية الاشياء فى عينى وفى عيون جميع من حولها ، انها تحول البشر الى طيور وحيوانات ، وتسبغ على الحيوانات صفات آدمية ، كانت تسخر من الناس ومن نفسها ومن الأشياء دون أن يستطيع أحد مقاومة هزلها فلا يضحك .. ولن أنسى يوم حضرت الى فصلنا ناظرة المدرسة بصحبة المفتشة ·· عندما سألتنا عن الادوية المطلوبة فى صيدلية المدرسة ، تحمست سامية كعادتها وركزت عينيها فى عينى المدرسة ، وأجابت بوقار :

ـ حبوب منع الحمل

للحظة ساد الصمت ، ولكن سرعان ما اندلعت ضحكات حقيقية بدأت من عند المفتشة والناظرة واستشرت حتى وصلت الى المدرسة التى كانت واقفة فى آخر الفصل ·· وخرجت المفتشة يومها وهى تضحك بينما جلست سامية فى هدوء وهى تسعل ·

بعد ذلك بأيام ، سحبتنى سامية من يدى بعد انتهاء اليوم الدراسى حتى وصلنا الى أمها فى المطبخ ، كانت واقفة تنظر من النافذة ، بينما يموج مرق فى وعائه فوق الموقد ·· استدارت على ضجيج سامية وهى تعلن ليا عن حضورى ·· مسحتنى بنظرة انتهت فى بؤرة عينى وقالت :

ـ أهلا يا ابنتى ·

لم ترد ·· بينما كانت سامية تحدث ضجيجنا وراحت تذكرها بكلامها عنى وتقول : أتذكرين .. تلك التى كانت تســاعدنى بالكتب الخارجية فى العام الماضى ·· وغششتنى فى امتحان العربى . ولولاها لكنت رســبت ، ألم أكلمك عنهــا من قبــل ؟ ·· ألا تتذكرين ؟!! · منذ اللحظة الأولى التى رأيت فيها أمها ·· كانت تخلف عندى الدهشة دائما ، ورغم السنوات العشر التى مرت : فما أظننى قد عرفتها أبدا ، هكذا فعلت فى ذلك اليوم ـ ودائمــا كانت تفعل ـ اقتربت منى وأخذتنى فى حضنها ، وانحنت حتى لامست منبت الشعر الفضى فى جبهتها والذى لم أر من شـــعرها الملفوف فى طرحتها السوداء غيره طوال عشر سنوات · وقبلتنى فى خدى بحب وبكت ·

ـ ٣ ـ

فى الشتاء ·· فى الصيف ·· عبر كل الشهور ·· كنا نجلس دائما جلستنا الثلاثية هذه هى على الكنبة الاستامبولى القديمــة الموضوعة تحت النافذة عينها مرة على شغل الكيروشية الذى بيدها ، ومرة على الشارع الهادىء الذى قلما يعبره عابر وسامية وأنا فى الناحية الأخرى من الحجرة نجلس بجوار المكتب ·· نذاكر دروسنا أو نثرثر ، سامية تلقى نكات وأنا أضحك ·· وهى لا تتحدث أبدا ولا تشاركنا الحديث أو حتى تبتسم لنكات سامية ، فقط من حين لآخر كانت تباعد بين حديثنا قائلة :

ـ سأصنع شــايا ·

أو تنبهنا :

ـ استعدوا للأكل ·

ما عدا ذلك ، لا أذكرها متكلمة قط ، وما رأيت من شعرها غير المنبت الفضى اللامع يتوسط أعلى الجبهة ، والذى يبـــدو من طرحتها السوداء كنجمة مشعة وحيدة فى ليلة حالكة ٠٠ أذكر مرة بعيدة ذهبت فيها لسامية لتغيبها عن المدرسة يومين ، وعندما دققت الباب فتحت لى هى ، وطالعتنى عيناها والدمع يتساقط منهما على يدى التى تعانق يدها وقالت :

ـ بوسى ولدت امبارح ثلاثة !!

ـ ٤ ـ

آه ٠٠ نسيت ان احكى لكم عن بوسى ٠٠ انها العضو الثالث فى أسرة صديقتى سامية ٠٠ التقطتها أمها يوما وهى قطيطة صغيرة من الطريق ، عندما كانت عائدة من السوق ، ومن يومها ولبوسى حياتها المستقرة فى البيت ، لها طبق طعامها الخاص ، وفراشها ، وعندما تغيب فى مواسم الاخصاب من حين لآخـــر لتلبى مطالـــب الجسد ٠٠ يدب القلق فى البيت ، ولو غابت أكثر من ذلك تذهب أم سامية وتسأل عنها الجيران ، وكثيرا ما كانت سامية تتندر على عشاقها من القطط الذين يبيتون أياما فى الصقيع على سلم البيت يناجون معبودتهم بوسى ٠

وكانت تجلس على فخذى خالتى أم ساميـــة تحت النافذة ، فتداعبها وتمسح لها على رأسها ، فتحركه القطة اللعوب بدلال ٠٠ أو ترمى لها بكرات الخيط لتلعب بهـــا وتخفيها تحت الكراسى وتعود بهـــا ٠

وفى احدى المرات .. ذهبت اليهم ، فطالعتنى والقطة على صدرها ، وهى تحتضنها وتربت عليها ، ودموعها تتسابق على خدها فى امتنان وهى تقول :

ـ بوسى فيها بركة وفدت سامية ، وقع اناء الشاى المغلى ، ولو لم تكن بوسى موجودة بجوارها لوقع عليها وأحرقها ، بوسى فيها بركة .

تأملت فراء القطة المبتل .. فقط كانت تنتفض من البرد وتلحس شعرها فى ضيق من لحقت بجسده أقذار .

ـ ٥ ـ

ا

المرة الوحيدة التى اصطحبت فيها أمى الى بيت أم سامية كانت من سنوات . كانت أم سامية تصنع أشغال الابرة للناس مقابل نقود تسند بها معاشهم القليل .. يومها أرادت أمى أن تحيك وشاحا ، وكنت سعيدة لأنها ستتعرف على أم سامية ، وعندما جلسنا سويا على الكنبة ، راحت أمى تحكى لها عنا : أبى وإخوتى وأنا ، وهى صامتة تستمع ولا تترك الابرة والخيط من يدها ، ولا تكف عن النظر الى الشارع بين الحين والحين كعادتها ، وعندما حكت أمى عن موت أبى المفاجئ بالسكتة منذ خمسة وعشرين عاما ، عند ذلك .. اقتربت الخطوط الدقيقة بين حاجبيها وتلاصقت ، وتذبذبت شفتاها الرقيقتان فى حركات سريعة متلاحقة .. واحتقنت أرنبة الأنف الذى يشبه أنف سامية تماما .. وسقطت دموع .. دموع .

— ٦ —

منذ عرفت بيت سامية ، لا أذكر انه قد مر يوم عيد دون ان أزورهم ، في الصيف أو الشتاء ·· بعد العصر دائما ، كنت ارتدى ثوبى الجديد وأحمل صندوق الكعك الصغير ، وفى الطريق أشترى قطعة شيكولاته لسامية و « بمب » لافزعها به ، وأذهب ·· وعندما أرى أمها تجلس تحت النافذة ، أتقدم منها وأقول لها كل سنة وانت طيبة يا خالتى ·· كانت ترد المعايدة ، وهى تأخذنى فى حضنها ، وتشير الى ثوبى الجديد بالاعجاب ، وتقبلنى فى فمى ·· ولازلت أذكر مذاق ملح دموعها على شفتى ·

— ٧ —

لا أنتظر حتى أصعد درجات السلم ·· ازعق بمجرد دخولى الى فناء المنزل الصغير ·· سامية نجحت ·· سامية نجحت ·· هذه المرة أدفع الباب الموارب بلا استئذان .. أدخل اليها وهى واقفة مبتلة الثيـــاب أمام الحوض ·· أضرب الأرض بقدمى وازعق ·· نجحنا ·· نجحنا ·· سامية نجحت ، تجفف يديها من الماء والصابون فى جلبابها بسرعة ·· لا تبتسم ·· لا تضحك ·· لا تتكلم ، الدموع المتأهبة للفرار تفارق المقلتين ، وتنداح على الخدين مدرارة بلا زمام ·· أقول لها فى هدوء ·

— مبروك يا خالتى ·

— ٨ —

منذ عام تخرجنا أنا وسامية ·

هى مدرسة بالريف ٠٠ تذهب الى القرية ، وتعود الى بيتها مرتين فى الاسبوع ، وأنا موظفة بالحكومة ، احمل نفسى مرة كل صباح الى الطرف الآخر من المدينة وأعود عند الظهر ، ولا يمر يوم دون ان أذهب لخالتى أم سامية ، اطل عليها وأسألها ان كانت تريد شيئا ، وأحكى لها عما حدث لى طوال اليوم ، وعن مشاكل العمل ، وأحيانا كنت أستأذن أمى فى المبيت معها فى الأيام التى كانت تغيب فيها سامية بمدرستها البعيدة ، ونظل ساهرتين ، لا نكف ، هى ، عن الامساك بالابرة ، بينما أنا أقرأ كتابا أو مجلة وأحكى لها عن العرسان الذين يطلبون يدى ، وعن ابن خالتى الذى رأى سامية مرة عندنا ويريد أن يتزوجها ، وهى لا توافق لأن شكله كحمار عربة الزبالة ٠٠ كنت أقول لها ذلك وأضحك وأنا أتخيل منظره ، أما هى فتنظر لى بين الحين والحين وتتأملنى والدموع تبلل عينيها ، وتدعو لنا بالتوفيق ٠

ـ ٩ ـ

أظن انى لا أستطيع ان أحكى التفاصيل الآن ، وهى لا تهم بعد ذلك ؟ ولا أدرى أأسف أم أرتاح لنسيانها ؟

فقط ٠٠ الذى حدث ٠٠ هو أن آخر مرة رأيت فيها سامية كانت عندنا فى البيت ٠٠ جاءت لتعود أمى المريضة ، وكنت ذاهبة لشراء بعض الأشياء فخرجت وتركتها مع أمى ، ومن ساعتها ٠٠ لم أرها ٠٠ والى الأبد ٠

باختصار ٠٠ ماتت سامية فى حادث مفاجىء على الطريق الزراعى وهى عائدة الى امها من المدرسة ٠

أتعرفون جنازة الغربان ؟ سأحكي لكم عنها ، عندما يموت غراب ·· تتجمع الغربان فجأة وتقيم مأتما وجنازة لدفنه ، ومثلما لا يدري أحد ·· من أين تأتي تلك الاعداد الكبيرة منهـــا ، وكيف تتجمع على وجه السرعة تجمع أقارب ساميه وأهلها . حتى ملأوا المنزل عن آخره ·

طوال علاقتي بسامية لم أر لها أقارب على الاطلاق ، ولا حتى في الأعياد ، ولم تكن تحادثني الا عن أمها ولا أظنها أثارت ذكرى والدها المتوفى مرة أمامي ، وعندما عرفت خبر وفاتها وذهبت الى منزلها ، نصف سائرة ونصف طائرة ، بين مصدقة ومكذبة ، في حالة تعقل ، وأيضا جنون ، كنت حتى تلك اللحظة ·· حتى لحظة رؤيتي لخالتي أم سامية ، كمن ألقي به من برج مرتفع ولم يرتطم بالأرض بعد ، وعندما رأيتها ·· آه عندما رأيتها ·· جالسة على الكنبة تحت النافذة بلا ابرة في يدها ولا خيط ، بلا دمـــوع على خديها ·· صرخت ·· زعقت ·· خبطت على رأسي ، ولطمت خدي ، ودفنت وجهي في حاشية ثوبها ورحت أعضها ، شعرت بأن طاقة الألم الهائلة بداخلي تمنع الهواء عن صدري ·· لم أقو على الكلام وقد تخشب لساني في موضـــعه ، وكنت أرفع رأسي بين الحين والحين ، أنظر اليها ، علها تقول أو تفعل شيئا ، لكنها كانت كما هي بالنظرات الأولى نفسها التي طالعتني بها ، يوم رأيتها لأول مرة ، والتي تمسحني حتى تستقر في المقلتين ، ومنبت الشعر الفضي عند الجبهة وسط لجة السواد الكبيرة . فقط لمحت كفها تتصلب متشبثة بمسند الكنبة القديم ، وسرسوبا من الماء الدافيء يتسرب من تحت جلبابها الأسود على الجزء العاري من ساقيها ، ويصب في جوربها الأسود القصير ، تسمرت على وضعي ·· فتحت عيني وفمي عن

آخرهما ، وتلاحقت أمامي في سرعة صورتها على الكنبة ، والنساء الغريبات النائحات من حولها ، والمنضدة المربعة القديمة . التي كنا نأكل عليها ثلاثتنا ، مستقرة في الركن ، ورجل لا أعرفه يرتدي جلبابا طويلا يقف وقد أسند نفسه للباب ، وغبت عن الوجود ٠

- ١١ -

أن تموت سامية ٠٠ هذا ما يشعرني بالخجل والعار !! ٠

كنت أظن انني التي يجب ان تموت ٠٠ شعوري نحوها كان دائما أنها افضل مني .. بالمقياس العام الذي يحكم به الناس بيننا ، كنت أفوز أنا الأجمل والأغنى ٠٠ وكثيرا ما كانت أمي تدهش من تعلقي بها ٠٠ كنت أرى كل الأشياء عندها أفضل ٠٠ حتى بيتهم الصغير الفقير ٠٠ وحتى الملابس التي كنا نشتريها سويا ٠٠ بالذوق والألوان نفسها ٠٠ كنت آراها عليها أجمل وأرق ٠

وكنت أشعر أنها ظريفة وجذابة ، وأحاول أن أقلد أسلوبها في الكلام ، وحركات يديها وتعبيرات وجهها ، حتى أن أخي الأكبر لفت نظري الى ذلك ٠

وعندما كنا نخرج سويا ، رغم اختلاف الشبه الواضح بيننا في الملامح والتكوين الجسدي ، كان كثير من الناس يظنون اننــــا شقيقتان ٠

بصراحة .. بعد ذلك اليوم .. يوم موتها .. لم أحتمل مواجهة خالتي أم سامية .. كنت أعتبر نفسي مسؤولة أمامها عن موت ابنتها وأنني قد خدعتها ٠٠ كان ذلك شعوري الدائم الذي تكون في داخلي منذ أن عرفتها ٠٠ أجل فعندما كانت تحصل على

درجات ضعيفة فى المدرسة أو تفسد شيئا فى بيتها أو تتأخر فى المساء ٠٠ كنت أشعر بالخجل والعار عندما أواجه أمها ، ولقد طفح هذا الشعور عندى الآن الى الحد الذى يجعلنى لا أقوى على مواجهتها على الاطلاق ٠٠ ولم أذهب اليها منذ ذلك اليوم ولا مرة واحدة ٠

ـ ١٢ ـ

مر شهر على وفاة سامية ٠٠ وأنا لم أر أمهـــا بعد ذلك مرة واحدة ٠ اليوم أيقظتنى أمى مبكرة قبل موعدى ٠٠ وبين الصحو والحلم سمعتها تقول لى بأن أم سامية تنتظر فى الخارج ، وهى ترغب فى توديعى قبل سفرها ٠

كمن ألقى عليه برميل من الماء البارد ٠٠ انتفضت حافيـــة القدمين اعدو خارجة اليها غير مصدقة ٠

القيت بنفسى عليها .. أخذتنى فى أحضـــانها وهى تكفكف دموعى بكفها دون ان يرتعش هدب واحد من أهدابها ٠

ـ ١٣ ـ

أصريت على أن أذهب معها الى المحطة استقر الرأى أن تعود الى بلدتها ، وســط أقاربها ، لتموت فيها ، باعت أثاثها وأوصت جيرانها خيرا ببوسى ٠

سارت بجانبى تحمل على جبينها منبت الشعر الفضى ٠ وفى يدها حقيبة جلدية صغيرة ؛ كل ما أخذته معها الى البلد ٠٠ لم نتحادث طوال الطريق ــ لم أحاول أنا ولم تحاول هى ، رغم الزحـــام

والضجيج لم يكن منا غير الصمت ، ومن حين لآخر كانت ترفع يدها وتحكم وضع طرحتها على رأسها ، وتعود لتنظر الى الطريق من نافذة السيارة التى حملتنا الى المحطة ·· كما كانت تنظر من جلستها على الكنبة عبر النافذة ·· وعندما توقفت السيارة فى فنـــاء المحطة الخارجى ·· أمسكت بيدى فجأة قبل ان تنزل وظلت قابضة عليها فترة من الزمن ·· تصلبت لم أقو على الحركة ولم تسعفنى الدموع ·

وعندما أطل وجه رجل من الخارج الى داخل العربة ســـائلا السائق أن يحمله ·· نزلنا وبخطى متثاقلة ارتفعت أقدامنا وحطت على الأرض ·· كنا فى جنازة ·· جنازة خاصة جدا ·

ـ ١٤ ـ

جلست معها قليلا فى عـــربة القطـار ، حتى يحين رحيله ، لم تتلاق نظراتنا أبدا حلقت نظراتنا صوب الأفق . . حيث لا شىء ، فكرت أن أقول لها شيئا ، ولكنى لم أجد ما يقال .

أوشك القطار على السفر ، نزلت ووقفت على الرصيف قرب مكانها ، أسفل النافذة · بدأ القطار يتحرك أحكمت وضع طرحتها حول رأسها ، ولم يظهر منها الا المنبت الفضى نفسه ·

وقفت فى مكانى ·· أرغـــب بالبكاء ·· بالصراخ ·· بأن أجمع العابرين واستوقفهم ، وأحتمى بهم ·· بأن أجـــرى خلف القطار ، وأمنعها من الذهاب ، ولكن فجأة ·· أقول فجأة ، باغتتنى ، ورفعت يدها بالتحية ، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة غريبة ، بدلت ملامحها ، وأنا التى أحفظها ، كملامح أمى طوال عشر سنوات ·

خلت إنها ليست المرأة التى أعرفها ·· خالتى أم سامية · كانت حركة القطار المتزايدة تشد ساقى الى الأرض ، حاولت التشبث بالمكان وباللحظة ، بالنـــاس العابرين ، بالمحطة ، وبالســـاعة الضخمة ، المعلقة فى صدر الحائط الكبير · لكننى كنت انهــار ، ويلفنى شعور لا أنساه ·· الشعور الذى أخذ يسرقنى شيئا فشيئا ، عندما رحت أعد الرقم الرابع ، بعد حقنة البنج ، يوم أجريت جراحة اللوزتين ...

قال التاجر — يقول منصور « البوهيجي » دوما لزبائنه مفتتحا الحكاية : « ودين النبي يا صاحبي انك خرفت وعقلك طار » . بعد ان سمع حكاية سندس من صاحبه الفران الذى قال انها طيرت النوم من عينيه حتى لحظة صياح الديك فى الفجر ، وانبسط وتكيف من الكلام ، وطقطق رقبته وهو ينظر الى لاقول شيئا ، لكننى ناولته الجزمة ، وأنا ساكت ، بعدما لمعتها ، ولما هم بالوقوف ، بعد أن لبسها ، وكان غلب الفـــران ، وقتها ، عشرتين طاولة ، فكان فرحا جدا ، خبط على كتف صاحبـــه ، الذى كان متضايقـا من الغلب ، وعدم تصديق العـــالم لكلامه ، بأن ما قاله حصل بحق وحقيق ، وأنه لا يكذب ، ولا يفترى على خلق الله ، ثم أنه حلف مرة ثانية بتربة أبيه الطاهرة ، وثالثة بالطلاق ثلاثة من أم عياله ، أن ما قاله هو الصدق بعينه . وأنه سمع من سندس بحملة أذنه التى أمسكها عندئذ ، ما قاله للتو واللحظة ، كلمة ، كلمة ، ودون زيادة أو نقصان ، فمن أحب فليصدق ، ومن لم يحب فهو حر ، أو يروح فى ستين داهية ، ثم طلب واحد قهوة سادة ليشربها ويريح نافوخه من الوجع .

عند ذلك الحد سهم التاجر قليلا ، ووقف فى مطرحه يتفكر فى كلام صاحبه ، وهو ينظر له باستغراب شديد ، وبقى على حـــاله هذا مدة من الوقت ، لعبت أصابعه بشاربه ، وواحد منها ككش

أنفه ، ثم تنهد تنهيدة عظيمة ، بعد ان نظر الى ناحيتي دون ان يعلق على الكلام بحرف واحد ، او يعرف الصدق من الكذب ٠٠ ومشى ٠

منصور البوهيجي ، الذى يحب كثيرا مثـــل هذا النوع من الحكايات ، وكذا كثرة الكلام ، والتقليب فى سيرة الخلق ، مال لتصديق رواية الفران ، خصوصا لأنه كثيرا ما شاف امرأة النجار ، تجلس فى دكان القماش كل يوم والثانى ، تأخذ وتعطى فى الكلام مع صاحبه وهى تسبل جفنيها ، وترفع ذراعيها ، لتزيح الشعر الناعم المتساقط على جبينها ، حتى يبـــان لحم ابطيها ، مما يجعـــل منصورا نفسه ترتخى أعصابه ، وتسيب مفاصله ، الى درجة ان تقع من يده فرشاة التلميع غصبا عنه ، بينما صاحب الدكان ، يطلب لها المشاريب الباردة والساخنة من المقهى ، ولا يرفع عينيه عنها . لذلك فالحكاية شعشعت فى دماغه وذهب لما الدنيا عتمت فى مساء اليوم ذاته للخرابة ليتقصى الخبر بنفسه ، اما التاجر فقد ألهته البضاعة والفلوس ، وأمور الدنيا ، بعض الوقت عن حكاية الفران العجيبة ٠

ذلك ما كان من أمره ، حتى لحظة مروره على الخرابة ، بعد ثلاثة أيام بلياليها من حديث الفران له على المقهى ، الذى منعه من مفاتحته ، برغبته في الدخول مرة ثانية على بنت بنوت ، كما منعه من ذلك حضور منصور البوهيجى ، الذى جعـــل وقت الكلام غير وقته ٠ التاجر فى الخرابة ، آنذاك ، كان يفكر فى الموضوع نفسه ، تأخذه وتجيبه الأفكار ، فهو يرغب في الكف عن الهلس ، والمشى فى البطال والحرام ، وبعثرة الفلوس ، كل ليلة والثانية على بنات الحظ ، ثم ان بنت البنوت التى ينوى الدخول عليها ، ربما ولدت له الولد الذى تتمناه نفسه ، ليحفظ له اسمه ، على ظهر الدنيا ، ويبقى فيها بعضا من رائحته بين الناس ، لكنه قبل كل شئ ، سيفاتح امرأته أم البنات بالأمر ، حيث لن تكون لها حجة في الحط من عزمه ،

لأنه ستر بناتها ، وزوجهن جميعا ، كما صبر عليها السنين الطوال دون أن ترزق بالبنين ، الذين يخاف ان يودع الدنيا دون ان تتكحل عيناه برؤية واحد منهم يخرج من صلبه • التاجر ، لما حصره البول ، فى الخرابة ، وكان قد فرغ من تقليب الأمر على كل وجه ، واستقر مع نفسه على ما وصل اليه ، فك أزرار سرواله ، ليفك ضيقته . وسار الى عشة سندس ، ليتدارى بحائطها ويقضى حاجته . عند ذلك تذكر كلام الفران عنها ، فابتسم لأنه سمع شخيرها يختلط بصوت رشاش بوله المندفع الى الأرض . ولما استرخت عضلاته المتوترة ، تفل راضيا ، وسب سافلين جدود الفران ، الذى لا يكف عن الفشر والكذب ، وابتداع الخرافات . ونوى ان يفضحه أمام الخلق ، عندما يلاقيه ، فى المقهى ، عند الصباح ، ان كان له عمر باذن الله •

كانت الدنيا شتاء ، والريح تطيح بفروع النخلة الوحيدة الباقية فى الخرابة ، هكذا كان يحكى البوهيجى ، قبل أن يسترسل فيما كان من أمر سندس مع التاجر والفران والموظف والنجار وبقية أهل الحارة ، وما جرى من نوادر عجيبة بعد ذلك ، وهى النوادر التى كان يحلو له حكايتها لزبائنه ، كلما سمح له الوقت بذلك فيقول : كاد البول ان يسيب بين فخذ التاجر مرة ثانية لما سمع شخيرها يتلون ، فجأة ، بغمغمات غريبة ، سرعان ما اكتشف أنها كلام بنى آدم ، « كلام مثلما كلامي وكلامك يا سيد » يقول ـ البوهيجى مؤكدا ـ التاجر احتار وخاف وتمنى لو استطاع لأطلق ساقيه للريح ، لكن قلبه كان قد طب منه عند رجليه ، فتسمر في مكانه ، حتى سمع كلام سندس كله ، ومن ساعتها شاب شعر رأسه ، وبقى كتابة بيضاء •

ثم انه جرجر نفسه بالعافية ، وسار سير من مسه مس ، لا يعرف أوله من آخره ، ولا رأسه من رجليه ، حتى وصل عمارته ، التى يسكن فيها ٠

منصور البوهيجى لم يحك – لأنه لم يعرف أبدا – ان زوجة التاجر أم البنات ، لاحظت صباح هذه الليلة ، والليالى التالية لها ، أن رجلها صار عابسا ، مهموما ، لا يلاطفها ، أو يقرصها فى فخذها كعادته ، عندما تنحنى وتضع المركوب فى قدميه ، قبل نزوله من السرير عند كل صباح ، كما أنه لم يعد يمس طعامه الا مسا خفيفا ، وقبل أن تحكى ذلك لجاراتها ، كانت قد طلبت من ربها الستر ، وجعل العواقب سليمة ، لأنها لما سألت زوجها عن سبب كربته ، تنهد وفرك يديه ببعضهما دون ان يجيبها ، الجواب الشافى لحيرتها ، وهى التى كانت تتوجس المكروب بسبب ان جفن عينها ظل يرف ، قبل ذلك بأيام ، رفات كثيرة جعلتها تقول لروحها فى قلق اللهم اجعله خيرا يارب ٠

« العواقب ، فى الحارة ، لم تأت ، بعد ذلك ، سليمة أبدا » ، هكذا كان يحكى البوهيجى للزبائن ، بينما يمرر فرشاته تمريرات سريعة على جزمهم ، لتلمع وتبرق كالبلور . « فالتاجر رغم أنه دفن سره فى قلبه وكفا على الخبر ماعونا ، الا أن صدره كان قد توغر ضد أخيه الخائن الذى يشاركه تجارته ويظن أنه ابن أمه وأبيه ، الذى يعيش معه على الحلوة والمرة ، ويأتمنه على ماله وتجارته ، لذلك قام التاجر بطرد كاتب الحسابات الذى عمل عنده عشر سنين قبل ذلك ، وأمسك حساباته بنفسه،لأنه وكما يقول المثل – يقول البوهيجى بجد – لا يخاف على المال الا أصحابه ، والتاجر ، من ساعتها ، فتح عينيه ، عن آخرهما ، على كل قرش ، داخل وخارج ، من تجارته الكبيرة فى السوق » ٠

« اما الولد كفراوى ـ يقول منصور البوهيجى أيضا ـ فقد كان يعمل صبيا عند الفران ، ويبيت ولا مؤاخذه ـ مع كلبه الأسود ، كل ليلة ، فى حجرة الكناسة ، التى يجمعها ، بأمر الفران ، ليبيعها ، حيث تعجنها نسوان الحارة ، لتطعم بها الفراخ والحيوان · الولد كفراوى ، بكى وولول كالحريم ،كما لطم وشق هدومه ، بعد أن شاف كلبه المحبوب مرميا ، رمية الموت ، بجانب مخزن الكناسه ، وقد تيقن كفراوى ان موت الكلب كانت بفعل فاعل ، سمه قصدا » ، منصور البوهيجى كان يضحك كثيرا عند هذا الحد من الحكاية ، ويسحب نفسا طويلا من سيجارته ، ينفثه بارتياح ، بينما يغمز بعينه للزبون ، ويضيف مقسما ، « والله يا حضرة ، سمعتها بحلمة أذنى ، من سندس ، وهى تقولها . سمعتها ، بالكلمة ، والحرف الواحد · كفراوى كان يفعل المفعول مع الكلب الأسود ، الذى كان يسميه جميل ، وأنا صدقت ، لأنى كنت أشوفه ، كثيرا ما ، يحرم نفسه ، من الحلوة والمرة ، وهو الفقير ، ويشترى للبهيمة اللحم الضانى ، بالشىء الفلانى · والا ، لماذا بالله عليك يحرم روحه ، ويعطى للكلب · لا بد ان فى الأمر « ان » ، اعقلها معى يا سيد » ·

ثم يؤكد منصور ، بعد ذلك ، ان كفراوى ، الذى منعه التاجر من احضار الخبز لامرأته ، عند كل صباح ، « لأنه نجس نجاسة الكلاب ذاتها ، ومنحرف » ، وكاد ان يجن فعلا ، بعدما صار مكتئبا ، حزينا ، طوال الوقت ، كمن مات له ابن أو أخ أو أب أو عزيز لديه ، بل وأصبح لا يتكلم مع الناس ، الا ، فى الشديد القوى ، عندما يلزم الأمر ·

« ثم ان الحارة كلها على بعضها أحوالها تغيرت ـ يقول منصور ـ والجفاء بين أهلها أخذ فى الزيادة ، والناس حصلت بينها

الوحشة ، ولم يعودوا يأتمنون بعضهم البعض ، أو يتحادثون فيما بينهم كما يجب ان يكون حديث الصاحب للصاحب ، حتى النسوان ٠٠ احترزن فى الكلام ، بسبب الخوف من الربط والعجن وتقليب الحكايات ، والسبب ، فى كل ذلك ، حكايات سنلس العجيبة . فالجميع كانوا يتسللون ، الى الخرابة سرا ، عندما يأتى الليل ، ويتسمعون كلامها ، ويقال ان حسين موظف الصحة قرر الرحيل ، الى مكان آخر ، لأنه اكتشف ان القهوجى كان مختبئا . فى الناحية الثانية ، بجوار العشه ، عندما حكت سنلس عن بيعه لحقن الكيف ، التى يسرقها من مخازن الحكومة ، ويحقن بها الخلق ، مقابل معلوم من الفلوس ، وأن امرأة التاجر ، نفسها ، كانت تشك ، منذ زمن ، فى أسباب تغير أحوال زوجة الموظف وعياله ، الذين بدت عليهم امارات النعمة فجأة ، وصار عندهم التلفزيون الملون ، والصالون المذهب ، بينما راتبه ، شهريا ، لا يزيد عن مصروف التاجر كل يوم على المشاريب والدخان •

أما بنت الموظف نفسها ، فسنلس قالت عنها انها تغار من زوجة النجار ، وتحقد عليها ، لأن البنت قبيحة ولاتعجب الجدعان ، حتى لو صبغت شعرها بالأصفر ، ولبست القصير المغرى كامرأة النجار ، لأنه شتان بين اللحم الأبيض ، واللحم الأسود ، والعود الطرى ، والبدن الجاف ، ثم انها تفتعل الأدب والاحتشام ، وتكثر الحديث عن العفاف ، وطهارة الذيل ، وربما لو أشار اليها كلب ، فى الطريق ، لتبعته من فورها وعلى رؤوس الأشهاد •

أما ما يقوله منصور البوهيجى من حكايات سنلس ، قبل أن يختتم هذه الحكايات ، بحكاية ما كان من أمر النجار مع امرأته ، فهو ما رآه بأم عينه ، وما سمعه بأذنيه الاثنتين ، من حكايات تخص سنلس نفسها •

سندس تشم الرائحة لكنها لا تبالى

« أحوال سندس تغيرت ، أقول ذلك لأنى كنت أعرفها ، وأشاهدها كثيرا ، وهى تشترى الحاجات ، من الدكاكين ، أو تشير لتاجر ، فى المقهى بأنه مطلوب من جماعته ، لأمر هام ، فى البيت ، كانت تتفاهم بالاشارة ، وكنت أمازحها ، وأهددها بأن أمسح بفرشاتى على مركوبها الوسخ ، الذى لا تقل وساخته عن وساخة قدميها ، فتخبطنى ـ يمسيها بالخير ان كانت حية ـ وتشير بأصابعها فى اتجاهى ، اشارات بذيئة أضحك منها : لعلمى أنها اغتاظت وفار دمها •

صحيح أنها استمرت فى الحصول على لقمتها ، كالعادة ، من بيت التاجر ، نظير تنظيفه والخدمة فيه ، كل يوم ، كما أن الفران لم يمنع عنها الأرغفة الست ، التى كان يجريها عليها ، كل يوم ، وظلت على عادة استحمامها ، كل مدة ، فى بيت الأدب بالمقهى ، عندما ينصرف الزبائن ، ويوشك القهوجى على الذهاب الى بيته ، لكنها أصبحت حديث الحارة والحوارى المجاورة طوال الوقت ؛ وقد حاول الكثيرون الكلام معها ، لكنها ظلت ، كما هى ، ساكتة ، بكماء لا ترد ، ورغم أنها شعرت أن أحوال العالم ، حولها ، تغيرت ، الا أنها لم تبال ، ولم تغير سنة حياتها فى شىء ، ومنذ أن وقعت عليها عيون الناس ، فى الحارة منذ مدة ، يقول بعضهم انها تزيد على الخمسين سنة ، التاجر والفران والموظف كانوا منشغلين ، أكثر من غيرهم ، بأمر سندس • التاجر الحويط قالوا ان حياته كانت مليئة بأسرار كثيرة وخطيرة ، كانت تعرفها سندس ، لذلك قرر تسقيف منور العمارة ، ليعد فيه منامة لها ، لأنه عزم أن يأتى بها ، من العشة ، ليقفل عليها كل ليلة عندما تنام ، فلا يتسلل لموضعها بنى آدم ليتصنت • التاجر ، فى الحقيقة ـ ولا يعلم

ما بالنفوس الا الجبار ـ كان يشتهى موت سندس ، وكان يستطيع ذلك ، لو بيت العزم ، لكنه كان يعتقد بالجان ، ويفكر أنها ربما كانت تؤاخى واحدا منهم ، كما ان حكايه الجنور انتهت ، لأن عامل المجارى ، الذى يسكن أسفل العمارة ، والذى كان يسد حلق التاجر ، المتمنى تركه للشقة الصغيرة ، التى يستأجرها منه ، بين يوم وليلة ، كان يسد حلقه بالايجار ، عند أول كل شهر ، لذلك فقد رفض تسقيف المنور ، وهدد بابلاغ البلدية ، لو تم ذلك ، لأن السقف سيكون غير شرعى وسيسد عن شقته النور والهواء ، وكذا باقى شقق الدور السفلى ، لذلك فكر التاجر ، عوضا عن ذلك ، فى بناء أرض الخرابة ، التى يمتلكها ، والتى كانت فى الأصل موضع سراى كبيرة ، يملكها صايغ أرمنى ، رحل مع امرأة ، تاركا سندس ، التى كانت تعيش معها ، وتخدمها ، قبل أن تخدم سكان العمارة وبيت التاجر . الأرمنى ـ يقول منصور البوهيجى مضيفا ـ اتفق مع التاجر ، عند البيع ، على ان يترك لسندس عشتها ، لتعيش فيها ، وقام بخصم ثمنها من ثمن السراى ، وقد نفذ التاجر الاتفاق فعلا ، ليس لأجل سندس المسكينة ، ولكن ، لأنه كان يعرف ان عشة سندس ستدخل ضمن حدود الشارع الجديد ، الذى تنوى الحكومة تنظيمه ، وأنه لن يخسر شيئا اذا ما ترك العشة على حالها . التاجر نوى بناء الخرابة ، ليجبر سندس على الاقامة فى عمارته ، لكن لما كان العامل الوسخ ـ كما يقول التاجر ـ يقف عقبة فى سبيل ذلك ، فقد استقر أمره على أن يخلى لها ، حجرة الخزين ، التى ترص فيها امرأته قدور السمن ، وأشولة السكر والأرز ، لتعيش فيها ، وليعلم جميع من فى الحارة ، بعد ذلك ، أن التاجر صاحب حسنة ، ويده ممدودة بالخير دائما .

الموظف ، المشغول بأمر سندس ، فضل الرحيل ، أما النجار ، الذى تظاهر بأنه لا يعرف شيئا عن حكايات سندس ـ رغم أن سعيد

الفران الذى لا تبل من فمه فوله نشر الحكاية على قدر استطاعته ــ فقد تابع الأمر فى الخفاء ، على نحو لا يلاحظه أحد من أهل الحارة ، وسمع ان سندس كانت جارية ورثها الأرمنى ، عن أمه ، منذ كانت طفلة ، وقال آخرون انها ، فى الحقيقة ، بنت حرام ، وجدها الأرمنى على باب بستان الدار أيام كان للدور بســـاتين وذلك عندما كان يتمشى فيه ساعة عصارى ٠

سندس ، ظلت تعود الى عشتها ، عند غروب كل شمس ، وهى العشة التى لا تزيد مساحتها عن مترين فى متر ، وتمد نفسها على فرشة قديمة ، تبقت عندها من أيام الأرمنى ، مع بعض الأشياء الأخرى ، التى كان من بينها علب صـــفيح فارغة ، وقطع فخـار مكسورة وتماثيل غريبة الأشكال ، كما كانت هناك هدوم قديمة تأخذها سندس من أهالى الحارة ، وكانت هناك لمبة جاز وناســة تشعلها المسكينة بمجرد دخولها العشة فى المساء ، وتأخذ فى النظر اليها حتى تروح فى النوم ، « وهذا الكلام ليس من عندى يا سيد » يقول البوهيجى دائما لزبونه ــ « لكنى رأيته بعينى عندما راقبتها عدة مرات » « وأقول لك صادقا اننى لم أكن أعرف فيم تفكر سندس على وجه التحديد ، حينما كانت ترقد فى فرشتها ، محملقة فى الوناسة ، حتى يغالبها النعاس ، فتنام ، كما أقول أيضا أن أحدا ، من أهل الحارة ، لم يكن ليعرف أيضا ، فيم تفكر هذه المرأة ، طوال النهار ، لكنها لم تكن معتوهة أبدا ، رغم أن خلقتها ربما أوحت بذلك ، فهى كانت تشتغل شغلها كله بشطارة ، وكان الجميع يتفاهمون معها بالاشارة ، لأنها كانت لا تسمع أيضـــا ، والرجال لم يفكروا فى الاقتراب منها ، أبدا ، لأنهم لم يروها امرأة قط ، بسبب شكلها الغريب قليلا ، ثم ان معظمهم ، عندما شبوا فى الحارة ، وجدوا سندس كبيرة ، بالنسبة لهم ، أما النسوان فكن يتندرن على شكلها ، وعندما يسخرن من احداهن يشبهونهـا

بسندس ، اما زوجة تاجر القماش ، التى كان نصيبها من الجمال قليلا ، فكانت تنهر النسوة ، عند ذلك الكلام ، وتقول لهن : انها خلقة ربنا ، ولا يصح ما تقلنه أبدا ·

يوم الدينونة فى الحارة

« قلنا ان الجفاء ، بين أهل الحارة ، قد زاد ، والرجال لم يعد يطيق بعضهم بعضا ، ورغم أن كلب نفراوى قتل ، والموظف ترك الحارة ، ورحل ، مع أهله ، والتاجر فصل تجارته ، فى النهاية ، عن تجارة أخيه ، الا ان الحكاية لم تقف عند هذا الحد ، ففى يوم من الأيام وجدت امرأة النجار مقتولة ، وقيل ان زوجها قتلها لما يتفق من أمرها مع تاجر القماش . وقبلها كانت الحكومة قد أوقفت فرن الفران ، وشمعت بابه بالشمع الأحمر ، بسبب تسريبـــه دقيق التموين ، خارج الفرن ، اما سندس نفسها ، صاحبة الحكايات العجيبة والتى حكت حكاية التاجر مع أخيه ، وزوجة النجار مع تاجر القماش ، وبيع الموظف للمسروق الممنوع ، وصبى الفران مع كلبه الأسود ، وحكايات أخرى كثيرة ، ربما سمحت الأيام بقصها ـ يقول البوهيجى ـ فقد اختفت من عشتها فجأة ، دون ان يعثر أحد على أثر لها ، البعض قال ان التاجر قتلها ، آخـــرون قالوا انهـــا طفشت ، بعد حادثة النجار ، بعض الناس نبشوا عشتها ، نسوان الحارة أخذن بعض قطع الفخار ، التى كانت تكومها ، ليستخدمنها فى أمور السحر والجان ، ورجال حفروا فى أرض العشـــة سرا ، ظنا منهم انه لابد وان يكون بها كنز مخبوء ، وحتى هذه الســـاعة لايعرف أحد شيئا عن ســـندس ، التى تركت كل حاجـــة ، من حاجياتها ، بمطرحها ـ يقول منصور البوهيجى ، الذى يثبت نظراته على وجه زبونه المستمع فترة ويضيف بعد صمت ـ ما عدا لمبة الجاز السهارة ، التى اختفت أيضا ·

فاض الكيل بالنقطة ولم تعد تحتمل الحياة مع الخط ، لأنها تمضى جل وقتها لاهثة تدور وراءه طالعة نازلة وكأنها فى دوامة لاتنتهى ، فهو يصير حروفا فى بعض الأحيان ، ويكون عليها أن تلبى أوامره سريعا ، بأن تقبع تحته تارة ، أو تستقر فوقه تارة أخرى ، أما عندما يتدور أو يتثلث أو يتربع ، أو يتخذ أيا من الأشكال الأخرى فان النقطة تبلغ ذروة غيظها وغضبها منه ، اذ انه يكون متجاهلا لها تماما ، ولا يعيرها اهتماما وكأنها غير موجودة بالمرة فى هذه الدنيا ٠

عند الغروب ذات يوم ، وبينما كانت الشمس تودع النهار على أمل اللقاء فى اليوم التالى ، كانت النقطة واقعة أسفل الخط وقد تشكل على هيئة علامة استفهام فداخلها شعور مريع بأنها موشكة على الانهيار ، كما لو أنها صخرة كبيرة ستقع وتنفصل عن جبل شاهق ، لذلك قررت أن تضع حدا لعذاباتها وتحسم ما جال برأسها طويلا فقالت للخط مباشرة دون مواربة وفى صرامة وحزم :

ـ لقد تعبت بسببك بما يكفى ، وسئمت الحياة معك ، لذلك سأفارقك ولن أعيش معك بعد اليوم ٠ سأرتحل بعيدا ، ولن أكون لك ٠ سأصير حرة أرتع كما أشاء فى فضاء الصفحات ٠ سأحيا من الآن فصاعدا لذاتى وأوليها ما تستحقه من العناية والاهتمام ،

فأنا فريدة ، خاصة ، مميزة ، لامثيل لى فى الكون ، ساحرة ، فاتنة ، صغيرة ، كبيرة ، متكتلة ، مصمتة ، مغلقة ، غامضة ، مبهمة ، مدملكة ، مثيرة ، رزينة ، مستقرة ، ساكنة ، متحفظة ، ملمومة ، مضمومة ، ولن أسمح لأى كان أن يستغلنى ويحط من قدرى ، أو يعاملنى باستعلاء واستخفاف • أية فرادة هى أنا ، وأية عظمة مستحيلة فى الخلق أكون •

نظر الخط الى النقطة بدهشة ، وهو يتأملها جيدا ، فلطالما تبرمت وتذمرت ، لكن فى كلامها ، هذه المرة ، نغمة جديدة غريبة ، لم يسمعها منها من قبل أبدا ، لذلك فكر مستغربا وهو يسائل نفسه :

ــ الآن •• تتحدث عن الحرية ؟! اتفكر فى ذاتها بعد كل السنوات ؟! لو قالت ذلك منذ زمن طويل لقلت : أجل ، انها متأثرة بهوجة الأفكار المنتشرة فى كل مكان ، ولكن الآن •• كلام عن الحرية ؟! هل تظن هذه العبيطة أن العالم مازال يعيش زمن حركات التحرر ، ويرفع شعارات الاستقلال ؟! ألم تسمع عن النظام العالمى الجديد ؟! ألا تعرف أن كلمة الحرية صارت من الكلمات الشاذة الغريبة الموشكة على الانقراض تقريبا ؟

ابتسم الخط للنقطة ابتسامة صفراء مستخفة ، لحظتها النقطة فزاد غيظها وصارت تغلى فى داخلها أكثر ، لكن تلك الصفراء لم تحل دون استمرار هواجس الخط أيضا فاستمر مسائلا نفسه :

ــ ولكن من أين لمثل هذه المفعوصة بمثل هذه الأفكار ؟! انها لاتغيب عن عينى ، وتدور حولى كالثور فى الساقية طوال الوقت ، فكيف يتسنى لها التلفظ بكلمات من هذا النوع ؟ لعلها

تغافلني عندما أنعس وأنام فتذهب سرا الى ندوات حقوق الانسان ، أو علها تنتمي ـ دون علمي ـ الى جمعية من جمعيات النساء الجديدة المنتشرة في كل مكان الآن ٠

راح الخط يتأمل النقطة جيدا ، ويتمعن فيها طويلا ، عله يكتشف متغيرات جديدة طرأت عليها ، فلما توصل الى أنها مازالت كما هي مجرد نقطة صغيرة ، لا أزيد ولا أقل ، تنهد بارتياح وطقطق أصابعه في رضا وملل ، ثم قال لروحه :

ـ اتركها يا ولد تبعبع وتفضفض عن روحها قليلا ، فكم من مرة هبت وثارت وزوبعت وعفرت وغضبت وحزنت لكنها في النهاية تطلع لفوق ، ثم تهبط على لا شيء ٠ انها صغيرة ضعيفة ، حمقاء ، رعناء هوجاء ، لاحول لها ولا قوة ، تظن أنهـــا قادرة على العيش بمفردها بعيدا عني ، لكن هيهات ، فهي لاتستطيع التحرك قيد أنملة من مطرحها الا باذني ومشيئتي ، فلتسكت يا ولد حتى تهمد نارها وتصفو لوحدهــا ٠ لكن النقطة نجحت في اقلاق الخط بعد أن حاول طمأنة نفسه ، وجعلته يتوتر فعلا ، فلقد اســـــتمرت في ثورتها ، ولم تكف عن الكلام وراحت تقول :

ـ ثم انك بدوني تفتقد كل معنى ، وينتفي منك المبنى ، فأنت محكوم وموسوم بي ، ولايمكن أن تكون الا اذا كنت أنا ٠ سبحان المتجلي الجبار ، يضع رزقه في أضعف خلقه ٠

زفر الخط بمرارة وضيق وهو يهمس لروحه : « اللهـــم صبرك يا روح » ، اسكت ياولد وامسك نفسك فهي نقطة ، مجرد نقطة تافهة لا راحت ولا جاءت فلا تنسق وراء اســـتفزازها ٠

تثاءب بملل وفضل أن يتجاهل الأمر كله ويتركها لينام قليلا حتى تهدأ ، فتكور راسما من نفسه دائرة صغيرة ، وراح يصفر لحنا خفيفا هادئا لينسيه مهاترات النقطة وشغبها ويجلب له النعاس • اغتاظت النقطة أكثر من سكوت الخط ولامبالاته بالرد عليها ، وجاءت حركة نومه كدليل جديد على قلة احترامه لها واحتقاره واستخفافه بها ، لذلك اندفعت تقول حانقة :

ـ ثم انني سبب وجودك ، وسر حياتك ، فأنا البيض وأنت الفيض ، اذا أنبعث فانشطر فأتكاثر فأتلاصق فأتماسك فتكون أنت ، فأنت بعض من بعضى ، وأنا التى جسدتك لتكون من مبتدأ أساسك حتى منتهى رأسك •

انتفض الخط منتصبا حادا كالعصا ، فقد أخذ الغضب منه كل مأخذ ولم يستطع تحمل المزيد من استفزازات النقطة ، والسكوت على كلامها المتكبر المهين ، وانطلقت كلماته كالحمم وهو يقول :

ـ اسمعى أيتها البائسة المغرورة ، لم أكن أرغب أن أرد عليك فى البداية ، أما الآن وقد سمعت منك ما سمعته ، فلسوف أواجهك بحقيقة وضعك فى هذا العالم ، فوجودك لا معنى له الا بوجودى يا مهملة ، يا مبهمة ، يا محدودة ، يا مسدودة ، يا كئيبة ، يا مريبة ، يا غريبة ، يا وصمة ـ اذا كنت وحيدة دونى ـ على بياض أية صفحة • أنا الذى يحميك ويذود عنك ويقول خلوها ، لاتزيلوها ، فهى مهما كان شكلها نافعة لاتغيب عنها الضرورة ، ولها بعض من الكينونة ، حتى وان كانت فقيرة ، صغيرة ، لاتستبين ثم عن أية حرية تتحدثين ؟! وهل لك من خيار حتى تختارين ، وتبتعدين ؟ أنت لا حرية لك ولا انتقاء • أنا الحر الذى يمكنه الصعود شمالا أو الهبوط جنوبا ، السريان شرقا أو التوجه غربا •

أنا المربع الواهي ، الغليظ ، المعلوم ، الحر ، الرامز ، المشير ، الرهيف ، الممدود ، المفرود ، المنكسر ، الكاسر ، المستقيم ، الموصيح، المشدد ، المحيط ، المثلث ، انستدير ، المفرود ، الممدود ، الملموم ، المضموم ، المعلوم ، القوى ، الضعيف ، الشـــاطر ، المشطور ، المستوى ، المنحنى ، الرفيع ، العريض ، القصير ، الطويل ، القائم ، المائل ، الرأسى ، الأفقى ، الفاصل ، القاطع ، الباتر ، الصارم ، الحاد ، المنساب ، المستقيم ، الرقيق ، الدقيق ، اللين ، الفيع ، الواضح ، الجلى ، المحدد ، الواصل ، المانع ، الحائل ، الدال ، السلس ، المرن ، المتعرج ، القافل . أنا الذى أكون حرفا ، فاتجسد ألفا وهاء وحاء ، أنا المتحول السرمد : تحير فى كنهى الفلاسفة،وتغنى بى المنشدون ، ألم تسمعى من قال : الحرف يسرى حيث القصد : ألا تدركين كيف أننى المتجلى ببهاء المعانى ، والقادر على التجسد والتسامى ؟ أنا الذى أكون شموسا وأقمارا وبحـــارا وأنهـارا ، أنا الورود والأشجار ، والمتجسد بهيئـات الذوات ، منى تتكون الجبال والتلال والبشر والأسماك والطيور . أنا من حفظ ذاكرة الزمان ، ورسم معالم المكان ، أجرد الأشياء فى جوهرها فتبقى أبدا إذا ما فنيت وغاب مظهرها .

ابتسمت النقطة ساخرة فى تشف وهى تتمدد قليلا لتتضح وتستبين ثم قالت :

ـ تحدثنى عن الغرور ! وأنت لاتكف عن قول أنا ، أنا ، أنا ، أعوذ بالله منك يا شيخ ومن قول : أنا ، ألا تعرف أنها سـبيل الشيطان ؟! ألم يبلغك قول من قال : « ذواتنا ناقصة ، وانما تكملها الصفات . وأما ذات الله فهى كاملة ، لاتحتاج فى شىء الى شىء ، اذ كل ما يحتاج فى شىء الى شىء فهو ناقص » (*) .

(*) عين القضاة للهمزانى .

غضب الخط كثيرا لسخريتها منه · وعيبها فيه ، فقرر أن يفحمها ويرد لها الصاع صاعين ، فرد عليها بلوم شيطاني ـ ربما لأن ابليس تمكن منه بعد أن غافله ودخل حلقه عندما كان يتثاءب لينام ـ قائلا وقد تحشرج صوته بحنق التوتر والانفعال :

ـ أصرت تردين على ؟! ترفعين صـــوتك فى حضـــورى ، وتسخرين منى ؟! ما شاء الله ! ماشـــاء الله ، والله جـاء خيرك يانقطة ، والله عشنا وشفنا ! لكن بما أنك نسيت أن العين لاتعلو على الحاجب فصرت تنتقديتنى وتصفيننى بالغرور ، بل وتتفلسفين فى المعنى والمبنى ، وتخوضـين فى حـديث الصـــفات والكمال والنقص ، فلتعلمى أنك فسيفسة من ضلال الظلمات ، ووجود تعز عليه الصـــفات · انت كئيبة ، مريبة ، عديمة المبتدأ والمنتهى ، لا وجه لك ولا قفـــا ، دوامة فى الدجى ، ومتاهة من العجز وقلة الحيلة ، أنت عين عمياء بلا رامش ، ووجـــودك بمثـابة هامش الهـامش ، لا تملكين من أمرك أمرا · ومع ذلك تتشـدقين بالبقاء والذهـاب ، والحضور والغيـاب ، ألا تعلمين أنه ما من ضرورة لوجودك الا بوجودى ، وأنك لاتملكين أن تجودى ، فأنت بلا فعل ، بلا حركة ، وأنا المجســد المتجسـد حيثما كنت ، أما سمعت من قال : « الحركة حياة فلا سكون فلا موت ووجود فلا عدم »(*) ؟ وأنت قمة العجز وغاية السكون ·

شعرت النقطة بمرارة الذل تجتاح حلقها · اذن ما هو الخط يعيرها بما غاب عنها من حظ فى الطبيعة وينكر عليها كينونتهـــا المحدودة المتواضعة · لا يتقبل منها نقدا ، ولا يسمع لها احتجاجا · ينكر عليها مشاعرها وكأنها قدت من صـــخر بلا احساس · ودت

(*) ابن عربى ·

لو تبكى لو تصرخ ، بعد أن استجارت منه بالله ، لكنها قررت ألا تستسلم أو تتراجع ، فعلى الخط أن يفيق من سباته ويدرك أن الدنيا تغيرت والزمن يسرى بروح جديدة فلا يمكن أن تستأثر القوة وحدها بهذا العالم ، ولا يمكن المتفوق أن يكون معيارا للوجود ، ففى الكون متسع للجميع ، وعلى الكل أن يتعايش مع الكل · لذلك تماسكت ، وراحت تبتلع الاهانة ، مصممة على خوض المعركة حتى النهاية ، وردت عليه بهدوء قائلة :

ــ مشكلتك أن ذاتك متورمة ، تحجب عنك رؤية ما حولك ، لذلك فأنت جاحد وناكر للجميل ، تعيرنى برسمى وكسمى ، بينما لا تنظر الى الشمس أمامك وهى تفترش الأفق كنقطة ضخمة رائعة من الضياء · أنت لا ترى نقطة الأرجوان البهيجة وهى تبتعد ، بينما تعيرنى بكسمى ورسمى ، وأنت الذى لا يستقيم وجودك الا بوجودى ، أنسيت أنك لست الا المسافة التى بينى وبينى ؟ أنسيت أن أصلك منبعه أصلى ؟ ولا تكوين لك الا من تكوينى ؟ صحيح أننى صغيرة ، محدودة ، مسدودة ، لا أروح ولا أجىء لكنك لا تستطيع الاستغناء عنى ، فعندما تتجسد فى كلمات أكون أنا ملح الكلام وأساس الافهام ، أما سمعتهم يقولون عندما يكتمل المعنى برسمى : وهكذا وضعت النقاط فوق الحروف ، ثم انى بابك الساتر اذا أمسكت وانتهى منك المقال ، فاذا كنت بعدك فهم انك أوفيت وأكملت · لقد كنت أظنك من اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، لا تبخس الصديق ولا تعير الرفيق ، فما بالك وأنا أجود عليك بفضلى ، أنسيت أنك واحد ، وأنا التى أجعلك عشرة ومائة وألفا وآلافا ؟ أنسيت أننى أحل عليك بركتى التى هى من بركة الله ، فتزيد وتتكاثر الى ما شاء الله ؟ · لن أسترسل فى الحديث عن نفسى ، ولكن عليك ن تعلم أن الدنيا تغيرت ، وعصر العبيد قد ولى وراح ، فليس لنفس أن تتسلط على نفس ، ومهما كان ضعفى ،

أو فقرى ، أو قلة حيلتى ، فان جبروتك وتكبرك لن يجدى معى بعد اليوم ، ولن تستقيم حياتى معك أبدا ، اذا ظل الحال كما هو عليـه ٠

تمطى الخط وتمدد فى استرخاء وهو يقول لها بعد ما أدرك هزيمتها وتراجعها من الهجوم الى الدفاع ٠

ـ ان ما تقولنيه ما هو الا بعض من حلاوة الروح المتبقية لمك ٠ اجرى يا شاطرة ، العبى بعيدا عنى كما تشائين ، ولكن قبل أن تذهبى انتظرى قليلا فسوف أريك شيئا ٠

صعد الخط عاليا ، بسرعة فوق السطر ، فرسم ألفا ، ثم انزلق سريعا الى أسفل فعمل راء وبعدهـا تلاعب بجسده فخلق ميما فسينا فعينا فدالا ، ولما انبعج بظرف كانت الصـاد فالطاء أما الحاء فقد سحبها بصنعة لطافة سرت الى اللام واللام ألف وأخيرا تلولب ليستقر هاء فى مطرحه مرة أخرى ٠

كادت النقطة أن تنفجر غيظا وهى تشاهد كل هذه القدرات المدهشة المبهرة الساحرة للخط ، التى لا تستطيع لأى منها سبيلا ، فلم تتمالك نفسها وشرعت تبكى بمرارة بينما الخط يسألها ضاحكا ساخرا ، متشفيا :

هه ؟ ما رأيك ؟ تفضلى واعملى شيئا واحدا مما عملته ثم تحدثى بعد ذلك عن الحرية ٠ مشكلتك هى مشـكلة كثيرين من أمثالك فى هذه الدنيا ، يتشدقون بعبارات طنانة لا مصداقية لها ، ويتبنون نظريات لا يقدرون على تنفيذها واثباتها فى الواقع ٠ من البديهى يا عزيزتى أن نفعل ما نسـتطيعه ، لا أن نتشـدق بما

لا نستطيع ، ولكن كم من البديهيات غابت عن هذا العالم ، ان أمثالك كثيرون ، أفنوا أعمارهم فى سبيل كلمات ظنوا أنها قادرة على تغيير العالم ، والحقيقة أنها لم تغير الا مصائرهم التى سارت من بؤس الى بؤس • أنت صغيرة يلزمك الكثير لكى تعرفى وتدركى •

بدت النقطة وكأنها لم تسمع حرفا واحدا مما قاله الخط ، فقد انكمشت على نفسها تبكى بكاء متواصلا • كانت خلال هذه اللحظات تفكر فى تاريخها ، عذاباتها ، آلامها الدائمة التى لا تنتهى فى هذه الحياة • لم تكن تفكر فى النظريات ولا فى تغيير العالم كما يظن الخط • فقط كانت تتمنى أن تستريح قليلا ، أن تشعر بوجودها ككائن حر يتحقق مرة بمفرده فى فضاء فسيح ، خال ، بلا صراع •

أخذ حجم النقطة يتناقص شيئا فشيئا كلما سكبت مزيدا من الدموع • كان لونها يبهت ، ومساحتها تتلاشى وقد تشوهت صفاتها وفقدت ليونتها وتكوينها الجميل • تجمد الخط فى مكانه مرتعبا وهو يلحظ غيابها وتضاؤلها المتزايد أمامه • شعر بخطورة الموقف ومدى المصيبة التى ستحل به لو أن النقطة استمرت على هذا الحال • انها تتلاشى تختفى ، تضيع ، وستأتى اللحظة التى لا تبين فيها أبدا • فكر ماذا سيفعل بدونها ، وما الذى سيحل به لو غابت أو اختفت ، كيف سيتخلق ويتكون ويتحول ؟! كيف سيتمكن من أن يصبح باء أو ثاء ؟ كيف يرتسم شينا أو ضادا أو قافا أو فاء أو تاء مربوطة وغير مربوطة ؟! وفكر أيضا ماذا سيكون مصيره عندما يكون أرقاما • انه لن يستطيع بعدها أن يكون عشرات ومئات وألوف وألوف ألوف • لن يتمكن من الاستفهام ، ولن يتيقن من معانيه • كاد هو الآخر أن يبكى وهو يستعرض فى رأسه صورته بدونها ، وحيدا ضائعا ، ناقصا ، عاجزا ، بعيدا عن الاكتمال • تضرع صوته وهو يناجيها ويرجوها ويناشدها قائلا :

ـ لا .. لا .. أرجوك .. كفى ، كفى ، أنت تضيعين روحك بالنواح ، جسـدك صغير ، ضعيف ، لا يتحمل كل هذا الحزن والانفعال . وفرى دموعك . أنا لا أستطيع الاستغناء عنك أبدا . هل فكرت كيف سأكون وحيدا بعدك ؟ كيف ستكون حياتى وأيامى بدونك ؟ ومستقبلى فى غيابك ؟

راحت النقطة تراجع مع نفسها كلماته وتتساءل : هل هو صادق حقا فيما يقول ، هل هو يتراجع ويراجع نفسه فى علاقته بها ؟ وهل نبرات الصدق التى سمعتها لتوها منه كافية لأن تجعلها تعيد النظر فيما قررته ؟ ثم انها فكرت فى مصيرها هى أيضـا . الام ستؤول حياتها ؟ وكيف ستعيش وحيدة فى هذا العالم ؟ لقد اكتشفت أن الرباط بينهما هو نوع من القدر الأبدى الذى لا يمكن أن ينفصم أبدا ولكن آه لو يفهم . آه لو يفهمها هذا الخط ولو مرة واحدة ويتمثل مشاعرها وأحاسيسها .

بعد صمت طويل نطقت النقطة ترد على الخط قائلة :
ـ اذا كنت جـادا فى كلامك ، فيجب أن تعترف بفضـلى عليك ، وضرورتى لك ، وأن بقائى معك يجب ألا يخل بكينونتى ، فلقد سئمت الحياة مع الحب والكره فى آن ، فاما تفاهم فحب فاحترام ، فاستمرار ، واما اختلاف ، فبغض ، فازدراء ، ففراق ، فأنا لا أحب شعرة معاوية ، لكننى أصبو الى حبل الوداد المتين الذى يمتد ـ لو شاء الله ـ الى يوم الدين .

تأملها مجددا باعجاب وافتتان ، ثم هز رأسه وتبسم وكأنه يرى وردة تتفتح ، وبدت له بالفعل جميلة ، قوية ، مؤثرة ، على الرغم من صغرها وضعفها ، لكن الى أى مدى سيمتد تمردها هذا ؟ وما الذى سيترتب عليـه ؟ مد لها ذراعيـه ليحتويها بينهما ، واستجابت هى رغم ما فى داخلها من تساؤلات فتلاقيا وهما يشكلان على نحو غاية فى الروعة حرف النون اللازم بداية لرسم كلمة نور .

بحـر الأعـالى

صبيحة كل يوم ، تصعد الى العالى بصحبة أمها حتى الشقة الخامسة والعشرين فى الدور العاشر فتدخلان المطبخ الوسيع ، الذى هو أوسع من بيتهما كله ، وبلاطه كبير ولامع كأنه مرايا بحق وحقيق .

تبقى هى جالسة على كرسى من كراسى الطاولة كما تأمرها أمها عادة ، حتى تفرغ من غسيل الصحون ، ولم الحوض وتلميع الدواليب . قد تعطيها شيئا مما تبقى فى صحون الافطار لتأكله أو تمنحها بعضا من حليب فائض فى اللبانة لتعبه قبل غسلها خلال ذلك يأتيها صوت الأم ناهرا :

ـ حطى مفتاح الباب مطرحه ، اياك يضيع وصاحب الشقة يعملها لنا حكاية .

تضع المفتاح مكانه على الطاولة المستديرة بأسف ، فهى تحب العلاقة الفضية المنتهية سلسلتها بمركب له شراع ، والمشبوك بها المفتاح ، بينما تخاطب روحها : « آه لو يكون عندى واحدة مثلها ، ألعب بها كل يوم ! » .

بعد أن تنتهى أمها ، تخرجان الى الشرفة الجانبية الصغيرة ، الملحقة بالمطبخ لنشر الغسيل ، فيصدمها فى كل مرة المشهد الفادح

للمدى السماوى المفتوح فوقها ، وتبقى عيناها محلقتين فيه ، وهى تتابع عبور سحابة متكومة كقطنة ضخمة شاهقة البياض ، أو ترصد طيرا يتريض رياضـــة مفتتح الصباح ، أما عندما ترسل بصرهـــا بعيدا الى تحت ، وتموج روحها بموجات الدهشة والانبهار ، فانها تقترب من الافريز الحديدى المرتفع للشرفة ، فى محاولة للتشبث به ، لتتسلق وترى أكثر، وما أن تفعل حتى ترتد مبتعدة وقد نهرتها أمها صـــارخة :

ـ غورى ـ ابعدى عن السور · ادخلى جوه أحسن لك ·

تقبع عند باب الشرفة فى طاعة وامتثال ، لكن ذلك لا يمنعها من السؤال عن كل ذلك الماء الكثير ·· ياما ، وفى كل مرة يأتى صوت الأم خارجا مع كثير من الضجر ، أو مع مشبك كانت تمسكه بأسنانها ريثما تفرغ يديها من نشر منشفة حمام ، أو ملاءة سرير ، وهى تقول :

ـ قلت لك ستين مرة ؟ بحر النيل · بطلى غلبة وكلام · الله ؟! ·

هى تعرف أنه بحر النيل ، لكنها تحب الكلام عن بحر النيل ، لأنه جميل ، كبير ، واسع ، على ناحيتيه زرع أخضر وشجر عال ، وفيه مراكب بأشرعة تروح وتجىء ، وهى تحب أمها عندما تغنى له فى بعض المرات ، عندما تقوم بدعك الصحون ، أو بتلميع زجاج الشبابيك فى الشقة الخامسة والعشرين ، وتقول :

ـ أمانة يا أسمر يا جميل
سلم لى على بحر النيل

تفكر وتسبح بخيالاتها فيه ، بينما صورته تتجسد دوما فى عينيها : مياه كثيرة ٠٠ ياما ، ماشية لبعيد ، ولطالما تمنت وهى على تلك الحال أن تعيش فى الشقة الخامسة والعشرين ، فى الصبح وفى النهار وفى الليل ، حتى تبص على بحر النيل فى أى وقت وتشوفه ، وكم تمنت ألا تهبط مع أمها أبدا الى بيتهما فى أسفل العمارة ، حيث لا شىء يرى الا تلك المناظر التى تكره مشاهدتها ، وتجعل روحها مخنوقة وزهقانة دائما ، لذلك فهى فى حالة دهشة مزمنة ، وتساؤل لا يغيب عنها ، عن السر فى أن أمها لا تعيش فى الشقة الخامسة والعشرين ، وتنام على السرير بجوار الرجل الوحيد ساكن تلك الشقة ، مثلما تفعل وتنام الى جانب أبيها الذى تكنس وتمسح وتطبخ وتنشر الغسيل له فى المنور بين الحين والحين ٠

لم يكن هذا السؤال المعضلة هو الوحيد الذى دفعت به الى مخيلتها الشقة الخامسة والعشرين ، بل كان الأهم منه بالنسبة اليها ، والأكثر اثارة لروحها ، هو شرفة الشقة الخامسة والعشرين، وما تظهره من بحر النيل العجيب ، ومياهه الكثيرة ، السارحة لبعيد ، الذلك أفصحت عن هواجسها ذات مرة وساءلت أمها :

ـ عاوزة بلكونة الشقة خمسة وعشرين تكون عندى ، عاوزة أشوف من فوق ٠

تنهدت الأم ، ثم تصعبت وهى ترد بحكمة تعليمية ، لم تجعلها تصرف النظر عن تقليب تقلية بصلة فول الغذاء وتقول :

ـ بصى من هنا أحسن ٠

بصت دائرة ببصرها على جدران الغرفة/البيت فلما لم تشف غير جلابية أبيها البيضاء ، المعلقة على المسمار ، وحزمة

الثوم المربوطة على مسافة منها ، والمعلقة على مسمار آخر ، ثم الرف العالى المحطوطة عليه دواء أبيها ، ومفتاح الغرفة ، شعرت كأنها على وشك الاختناق ، فحتى الشباك الصغير فى الحجرة ، والمفتوح على المنور ، لا يستبين من ورائه غير حيطة الطوب الأحمر ، ومواسير المجارى الغليظة السوداء .

تركت أمها لتقليتها وفولها ، وانسحبت خارجة الى فناء العمارة ، مشت قليلا حتى وصلت الى مدخلها ، وقفت تتأمل الشجرة العالية الموجودة فى نهايته قرب رصيف الشارع ، فكرت ، وهى تتنهد برضا ، فى جذعها المتين ، وفروعها العالية الممتدة ، والتى تعرف بعضها القريب من الأرض ، فلطالما قفزت اليها ، وتشبثت بها لتؤرجح نفسها وتلعب ، لكنها الآن تفكر فى الشجرة على نحو لم يكن قد خطر فى بالها من قبل ، وهكذا وجدت نفسها تتقدم منها ، وتأخذ فى تسلق جذعها الراسخ فى سهولة ويسر ، ثم تعتليه دونما مشقة ، يعاونها جسد خفيف لم يحظ بغذاء يليق بطفلة لم تبلغ السادسة بعد .

ما أن استقرت على الجذع حتى راحت تتجاوزه صاعدة الى الفروع ، وكانت كلما صعدت فرعا يستبين لها جزء من بحر النيل ، فتأخذها المغامرة أكثر ، ويدفعها الطموح الى فرع أعلى تشاهد منه أكثر وأكثر مما تتمنى دائما ، وهكذا راحت تبعد شيئا فشيئا عن فروع الجذع المتين الى فروع الفروع العليا .

كان سؤال يلحف فى روحها ويعصف بها أثناء ذلك ، بينما يدفع بساقيها ويديها بعيدا الى أعلى ، « هل يمكن أن أراه عندما أصل أعلى فرع ، مثلما أراه دوما من شرفة الشقة خمسة وعشرين ؟ » .

بعد لحظات ، بدا لها أنها أوشكت على الاجابة عن السؤال ، اذ كانت مساحة لابأس بها من الجسد المائى الساحر الممتد قد باتت ملك ناظرها ، وهى تقبض بيدها على فرع جديد ، وقد هيء لها أنها اذا بلغته بلغت مرادها ومنتهى أملها فى رؤية بحر النيل كاملا ، رائعا، عظيما ، مثلما يكون أبدا من شرفة الشقة الخامسة والعشرين·

فى هذه المرة ، حدث ما لم تتوقعه ، وكان لابد أن يحدث ، فقد تشبث فرع الشجرة الصغير الغض بفرعها ، مثلما كانت تتشبث هى بفروع أمه الكبيرة ، وسرعان ما عكس رحلتها الى الأعالى ، فهوى هابطا بها ، وقد ناء بحمله المستحيل ·

بعد ذلك بساعات، كانت قد بدأت تفتح عينيها فى المستشفى، تطلعت من رقدتها الى أعلى ، لم يكن هناك غير السقف الأبيض وقد تدلت منه لمبة الكهرباء بسلكها الطويل ، هبطت بعينيها الى أسفل، فلم تجد الى جوارها غير أمها ، وأبيها وقد وقف مرتديا جلابية المسمار ، والتى لا يستعملها الا لماما فى المناسبات المهمة · كانت أمها تبكى وهى تنظر الى ذراعها ورجلها الملفوفين فى لفائف صلبة بيضاء ، ثم سمعتها تقول لها باشفاق وحنان ·

ــ شفت آخر شقاوتك وعفرتك · كان لازمك البص من فوق ·· يعنى !!

التــــــكهن

هذه المرة ، وبينما كنت جالســــة أنتظر الطائرة فى مطار أمستردام ، لم يداخلنى ذلك الشعور اللامبالى الذى يهيمن على حواسى عادة كلما كنت على سفر ، فالجغرافيا لن تكون بعد قليل الا سحابات عابرة ، أما التاريخ ، تاريخ المرء الشخصى ، فيسكن الذاكرة كنوع من الهلام غريب يصعب الامساك به ووصله بالزمن الحاضر ، اذ يولد الطيران حالة لا مرئية غامضة من الاتصــــال الانسانى ، اتصال بأناس لا وان يربطك بهم تاريخ ، ولن تقاسمهم الجغرافيــا .

وخلال ذلك الوقت من تلييل الليل ، كنت أكابد مللا وتعبا ونعاسا يغمر رأسى ، وقد تلخصت آمالى كلها فى مقعد طائرة استقر عليه لأتخفف من عبء رأسى وأنام ، فالرحلة التى قطعت جزءا منها قادمة من استوكهولم الى أمستردام ، والتى مازال على أن أنجز ما تبقى منها حتى القاهرة ، باتت مرهقة ومملة لى ، خصوصا بعد أن أعلن عن ساعة تأخير كاملة بالنسبة لموعد الاقلاع المحدد ببطاقة السفر . هكذا اضطررت للجلوس فى انتظار استدعائى مع بقية الركاب لصعود الطائرة ، غير أنى وقد اكتشفت أن لا طائل من الملل والضيق ، قررت التسرية عن نفسى ، ورحت ألاعبها لعبة كنت قد ابتدعتهــا منذ زمن وألعبهــا عادة فى مثل هذه الظروف ، فكنت آخذ بالتطلع بين الحين والحين الى جمهرة المسافرين الجالسين حولى ،

وأحاول معرفة البلاد التى جاؤوا منها ، وطبيعة أعمالهم ، والغرض من تنقلهم • كان على ، وقد بدأت فى اللعب • أن أسقط جمع العجائز اليابانيين من حسابى ، اذ أنهم أفسدوا الأمر على منذ البداية ، فما ضرورة التكهن بشأنهم ، لأن اليابانى وقد أفصح عن نفسه بملامحه المعهودة ، منذ اللحظة الأولى لا يمنحك لذة اكتشافه ، وبصفتى مديرة شركة سياحية ، أعمل فى مجال السياحة منذ ما يزيد عن عشرين سنة ، يسهل على التأكيد أن هؤلاء اليابانيين سيستقلون الطائرة ليهبطوا فى مطار القاهرة فيصعدوا منه مباشرة فى طائرة أخرى متجهة الى مدينة الأقصر ، ليمضوا ثلاثة أيام وثلاث ليال فيها ، يهرولون خلالها طيلة النهار سعيا وراء الآثار فى وادى الملوك ووادى الملكات ، ثم يذهبون آخر اليوم الى الفندق فيغتسلون ويتعشون وينامون •

صرفت بصرى عن الصفر ، مفسدى اللعبة ، وجلت ببصرى فى بقية المنتظرين : بضعة مصريون ، أظنهم من موظفى سفارة لنا بالخارج ، نساء بعضهن محجبات يرتدين أزياء متاجر أوروبية ، غير أن كمية الذهب حول أعناقهن وأذرعهن ، وطريقة استخدامهن لمساحيق التجميل ، وتلك النظرات المدعية المتعالية متصنعة القيمة ، تسفر فى الحقيقة عن هزة داخلية ، ربما سببها طبيعة الحياة فى الغرب المتناقضة مع قيمهن القروية والمتجلية بوضوح فى كومة العيال المصاحبة لهن بين راضع ، ومحمول على الكتف ، وجالس على الحجر وصارخ ولاعب وباك •

اذن ، لم يبق لى غير هذين العاشقين اليافعين : أرجح أنهما من الألمان فهما يتعانقان بين الحين والحين ، بينما يطالعان كتابا اقتنصت حروفه اللاتينية من الغلاف ، ربما كان عن أنظف المطاعم فى القاهرة ، وكيفية تجنب ابتزاز تجار خان الخليلى ،

وتجنب نصب الأدلاء السياحيين ، ومجموعة من النصائح الضرورية للسياحة فى بلد غير متحضر يقدمها المؤلف لمواطنيه ·

لكن ها هو مسافر جديد يأتى ، قلت لنفسى وأنا مستمرة فى اللعب : عظيم !! ، لمحته يدخل مسرعا ، يقترب من شماعة الجرائد الموضوعة فى ركن الصالة ، يقلب المعروض سريعا ، يختص الديلى تلجراف فيسحبها ويتجه الى مقعد أمامى ، ثم يترك حقيبته الى جانبه ويأخذ فى القراءة · ربما كان انجليزيا أو أمريكيا قلت ، هو تحت الخامسة والأربعين تقديرا (لم يكن يستخدم نظارة قراءة) ، يرتدى بذلة رمادية داكنة تحتها قميص قطنى سماوى مع ربطة عنق سوداء ، وجهه لا يخلو من وسامة كلما استبان من خلف صفحات الجريدة التى راح يقلبها دون مهل ، عابرا عبورا سريعا على ما فى صفحاتها وكأنه لا يقرأ غير العناوين الكبيرة البارزة ، رجحت ، من ذلك ، ومن بنيته المتينة نوعا ، أنه ربما كان لاعبا من لاعبى كرة القدم ، أو مندوبا لشركة دولية من تلك الشركات عابرة القارات ، أو متعددة الجنسيات الحاكمة للعالم والمتناثرة فروعها على خريطة بلادنا كالرز فى الطبق بعد توقيعنا على اتفاقية الجات · الحقيقة أننى استبعدت أن يكون واحدا من المشتغلين بصناعة الأفكار : أستاذ جامعة ، كاتب ، باحث مثلا ، فوجهه الوسيم نوعا ، ونظراته الراضية المطمئنة ، وان شابها شىء من التعالى السائد فى نظرات بعض الغربيين ، تصعب قراءتها على وجوه أولئك المهمومين ، المتعبين بما هو أبعد من الذات ·

راجعت نفسى ، قلت : قد أكون مخطئة فى تقديرى فالملل ، وربما التعب قد يدفعه مثلما يدفعنى الآن الى عدم الرغبة فى القراءة · على أية حال ، وأيا كانت المسألة ، نجحت لعبتى التى لعبتها فى التلاعب بالوقت ، وهضم الملل ، فهاهم ينادون على ركاب الطائرة ،

وها أنا أسارع للاصطفاف فى طابور المغادرين ، لأكون قاب قوسين أو أدنى ، كما يقولون ، من مقعدى المأمول ٠

لم تمر الا دقائق قليلة الا وكنت مستقرة على كرسى بجانب كوة من كوات الطائرة الصغيرة ، فى جناح غير المدخنين ٠ كنت قد اقتنصت المقعد على طريقة وضع اليد ، لأن مقعدى الأصلى كان فى ناحية الممر ، لكنى أحبذ الجلوس وقت السفر بجانب النافذة لأراقب الطريق ، وان كانت هذه الرغبة بلا معنى الآن فى شتاء تلك الليلة الأوربية من ليالى شهر ديسمبر القارس ، حيث السماء لا تفصح عن أى مشهد للناظر اليها من الشباك ، غير منظر سوادها الشامل الحالك ٠

ربطت حزام الأمان ، مددت قدمى المتعبتين ، وماكدت أتأهب مضطجعة لأحلام سعيدة خلف جفنين مغمضين الا وكان ذى البدلة الرمادية والقميص السماوى قد جاء ، وراح يمارس طقوس الاستعداد للرحيل ، فبعد أن وضع حقيبته داخل الرف العلوى المخصص لحقائب اليد وأغلقه ، راح يتطلع الى رقم المقعد الشاغر الى جوارى ، ومقعدى ، ورقم مقعده فى البطاقة ، نظر الى نظرة ذات مغزى ، قلت له على اثرها :

ـ عفوا ٠ جلست مكانك ؟! أستطيع أن أتركه لك ٠

هز رأسه نافيا ، محركا كتفيه بلامبالاة ٠ ثم جلس على الكرسى المجاور بسرعة ، ربط الحزام وفعل ما كنت أحاول فعله لتوى ، اذ أغمض عينيه لينام ٠

تكهنت : لا يمكن أن يكون ألمانيا ، والا لكان أصر على مقعده ، وهل يتفاهم الألمان فى مسألة تخص النظام !؟ لكنه ربما كان كنديا

مثلا ، لماذا حصرته فى الجنسية الانجليزية أو الأمريكية ؟! تدافعت مشاهد الرحلة بسرعة ، وكأن القائمين عليها يبغون تعويض التأخير وما فقدناه من وقت ، أخذ قائد الرحلة يعلن عنها ويزودنا بمعلومات عما سيكون عليه الحال أثناء الطيران ، درجة الحرارة الداخلية والخارجية ، الارتفاع ، كيفية مراعاة قواعد الأمان ۰ انتهى بسرعة ليفسح زمانا لموسيقى خفيفة محايدة ، حركة المضيفات لا تنقطع ، أصوات المحركات تأخذ نصيبها هادرة ، جارى يتململ فى كرسيه ، أذنى تأبيان السكينة وتبصران مالا تراه عيناى المغمضتان ، أشعر بحرارة رغم برودة الجو ، أفك زر قميصى العلوى وأتنهد بضيق طالبة خلاصا من حالة الاحتباس الطائر هذه ۰ أخيرا تبدأ الطائرة ــ ولا أعرف لماذا لم يسمونها الطائر ؟! ــ رحلة صعودها السماوى بعد أن تتدلل على الممشى قليلا ثم تندفع الى أعلى وفى لحظة فريدة ، أعتبرها من أجمل اللحظات لسبب غير مفهوم لى ۰

سرعان ما بدأ صوت فك الأحزمة المربوطة مرة أخرى ، وصوت الكراسى وهى تأخذ وضع الاضطجاع ، أقدام المضيفات تتقدم وهن يجرجرن عربات المشروبات ، أخيرا وقفت المضيفة أمامنا ، فتحت عينى ، سألتنى عما أريد أن أشربه بينما كان جارى يمد يده لها بورقة أخذتها دون أن تنظر اليها ۰ قلت :

ــ نبيذ ۰ سألت :

ــ أحمـــر ؟

ــ أبيض من فضلك ۰

ناولتني الكوب البلاستيكي ، صبت بعضا من نبيذ الزجاجة الصغيرة فيه وابتسمت • ولا أدري ان كانت قد قرأت ورقة جاري أم لا فقد انشغلت برشف قليل مما صبته لى ، لكنى لاحظتها وهى تضع أمامه زجاجة ماء معدنى وكوبا ، صبت له مثلما فعلت معى ، فشرب بنهم غريب ، وما هى الا لحظات حتى كان قد أتى على ماء الزجاجة كله •

أخذت أتجرع النبيـــذ فى بطء متلذذة ، كنت أتوسل به لأسترخى وأنام ، وهو ما حدث بعد ذلك بقليل ، اذ كان جسدى قد أخذ يتراخى ، ونعاس مهيمن يجرنى اليه ، فكرت فى الاستسلام، لكنى آثرت التريث قليلا حتى آكل شيئا يسيرا ثم أغطس بعد ذلك في بحار السبات •

بدا جارى وكأنه لا يرانى ، ارتحت لذلك وحمدت الله ، فأنا أكره الكلام والثرثرة أثناء السفر ، مثلما أكره الحديث مع الغرباء ، الذى يكون عادة كمية لا حد لها من المجاملات ، وهذا ما أكره وأعانى منه لأنى مديرة شركة سياحية اضطر للمجاملة والكياسة كثيرا حتي أنجز أعمالى وأحصـل على وفود • لذا أنا مستريحة الآن لرفيق الساعات القادمة ، فهو على ما يبدو من ذلك الطراز المنسحب على ذاته ، المتحفظ فى علاقته بالآخرين •

جاءت مضيفة أخرى تجرجر عربة الطعام ، وضعت أمامه صينية وسألتنى ان كنت أفضل السمك أم الدجاج ، فلما طلبت سمكا ، فتشت لديها ، وطلبت منى الانتظار لحظات ريثما تذهب الى المطبخ وتعود لى بالسمك الذى كان قد نفد من عربتها •

كان جارى خلال ذلك قد فرش المنديل الورقى المخصص للطعام على فخذيه ، ثم ظل منتظرا ، فلم يشرع فى الأكل حتى عادت المضيفة بالسمك لى . وما أن بدأت باخراج أدوات المائدة من كيسها السلوفانى الشفاف حتى أخذ فى التهام طعامه .

رحنا نأكل صامتين ، التهم طعامه بسرعة واضحة ، هز رأسه للمضيفة الشاى والقهوة رافضا ، وفعلت مثله ، اذ كنت لم أزل أحتسى نبيذى ، وبمجرد أن سحبت المضيفة صينية الطعام مرة أخرى ، نكش أسنانه ونام .

رحت أنام أنا الأخرى ، خصوصا وأنهم خفضوا درجة الاضاءة ، وكنت أهدهد روحى متمنية لها نوما هادئا ، بعد أن اخترت أغنية قديمة من مجموعة أغنيات عبرت ذاكرتى ، وأخذ ينساب بداخلى على نحو تكرارى لحن « شباكنا ستايره حرير من نسمة شوق بيطير » ، كان يتدفق واضحا فى داخلى وكأنى كنت أسمعه من مذياع بالفعل ، أو من أسطوانة حقيقية ، حتى وقعت شيئا فشيئا أسيرة للنعاس .

لا أدرى كم مر من الوقت على ذلك ، لكنى صحوت على اهتزاز شديد فى الطائرة ، كانت تتطوح كأرجوحة يلهو بها طفل صغير ، قلت لروحى : انها المطبات الهوائية لا غير . كنت مضطربة قليلا ، نظرت الى جارى علّه يمدنى بما يهدئنى لكنى وجدته مستغرقا فى نوم عميق . فجأة وبينما رحت أطالعه ، تجمدت فى مطرحى ، وشعرت بشعور غريب يسرى فى جسدى ، كان جارى فاتحا ساقيه تماما ، وقد خلع الحذاء من قدميه ، بينما لامس برجله رجلى وركبتى ، أما يده اليمنى فكانت مستقرة على فخذى تقريبا ، بعد أن مدها لتتجاوز المسند الفاصل بين مقعدينا عابرة حدوده الى حدودى .

لا أدرى لماذا ارتبكت وقد بدا لى وكأنه رجل ينام على فراشه فى البيت ، أظن أننى وقعت فى مشكلة سخيفة اذ أخذت أتكهن بدوافع سلوكه هذا على النحو التالى : أولا : رجل نائم بالفعل ولا يدرك ما يفعله • ثانيا : شخص وقح يسعى لمعاكسة وضيعة من الدرجة العاشرة • ثالثا : انسان غبى ، سىء التقدير ، بليد ، يتصرف بأنانية بالغة وعلى راحته دون اعتبار لوجود آخرين •

قلبت الاحتمالات الثلاث مفكرة بسرعة فى محاولة للمواجهة السريعة • هل اشتمه ؟ أم أرفع يده بعنف الى أعلى وأتركها تهوى الى أسفل السافلين فيفيق ؟ أم يتوجب على أن أهزه من كتفه ليفيق ثم أشرع فى توبيخه بشدة •

لم أفعل أى من هذا ، فلقد حرت ولم أقو على أى فعل ، ربما بسبب ذلك التعبير البرىء الذى بدالى مرتسما على وجهه فى ظل هذه الاضاءة الخافتة ، زادت حيرتى ، تذكرت أفلام السينما ، حيث تنام البطلة فى بعضها على كتف البطل ، كدت أضحك ، قلت : لا ! مستحيل أن يبلغ الانسان هذا الحد من قلة الذوق ! اذن سأوبخه فهذه وقاحة فعلا ! لكنى تراجعت وأنا أتوقع الجلبة التى يمكن أن تنتج عن ذلك ، فتلفت الأنظار الى وتجعلنى موضوعا يدفع الركاب به مللهم خلال بقية ساعات السفر ، تراجعت وأنا أراجع لفتته المتحضرة فى انتظار سمكى قبل الشروع فى التهام صدر دجاجته ، وفهمت خلال ذلك عبقرية بنات الجامعة عندنا فى ادارة الأزمات ، فقد حكت لى أحداهن أنهن يخرجن دبوس ابرة صغير يخزن به جار السوء فى المواصلات العامة عندما يتعرضن لمضايقات مثل ما اتعرض له الآن ، فالوخذ يدفع الجار الرذيل للابتعاد عنهن ، دون أن يلفتن اليهن الأنظار ، أخيرا : حظيت بالهام ، فانتفضت تاركة له يده ورجله ليفعل بهما ما يشاء ، مقررة الذهاب الى دورة المياه ، لكن

حركتى المفاجئة أيقظته . نظر الى نظرة غريبة ، خيل الى أنها لا يمكن أن تكون لانسان كان نائما لتوه ، لأنها لم تكن مشوبة بأى نوع من الدهشة أو المفاجأة ، ولم تكن متشبثة بأية رغبة فى العودة الى الوعى . قلت له وأنا أنظر اليه وقد شعرت بارتباك جاهدت لأخفيه :

ـ عفوا .

لم رجليه قليلا كى أعبر ، احتككت به رغما عنى ، وسرت الى دورة المياه .

عدت بعد قليل ، وجدته مسندا رأسه الى مؤخرة المقعد وقد اشرأب بعنقه قليلا ، بدا وجهه على هذا الوضع أكثر وسامة مما ظننت ، انفه على وجه الخصوص بدا جميلا شديد التناسق مع العينين والفم ، هممت أن أقول له : اذا نمت فالتزم حدودك . لكننى وجدت العبارة طويلة بعض الشىء ، فقررت اختصارها الى : من فضلك لا داعى لذلك ، لكنها كانت مهذبة ، غير حاسمة ، فغيرتها الى : اياك أن تفعل ذلك مرة أخرى ، فلما وجدت أنها ستفتح الباب للأخذ والرد آثرت الصمت وقد تملكنى غيظ وضيق . اكتفيت بالجلوس مرة أخرى على مقعدى ، وادارة ظهرى له حتى نهاية الرحلة ، بعد أن أخذت وضع التحفز والاستعداد لمواجهة أى هجوم وارد جديد .

يبدو أننى نعست مرة أخرى ، وأنا على هذا الوضع ، لأننى عندما أفقت كانت الاضاءة غامرة . والمضيفة تمر على المقاعد لتتأكد من ربط الأحزمة من جديد . ربطت الحزام ورحت أتطلع من الشباك . كانت أضواء موطنى قد بدأت تلوح من بعد .

مرت أيام على عودتى الى أرض الوطن ، نسيت خلالها أحداث زمن الطيران العابر ، لكنى ذات صباح ، وبينما كنت منهمكة مع أحد الموظفين فى متابعة عمل لى فى أحد الفنادق المعروفة بالبلد ، وجدت جار الطائرة يتقدم نحونا ، وقد ارتدى الملابس ذاتها التى كان يرتديها أثناء رحلتنا معا ، وكان يحمل بيده الحقيبة السوداء نفسها ، نظر الى قليلا وكأنه يرانى لأول مرة ، ودون أن يقول شيئا ، رأيته يخرج قلما من جيبه ويكتب ورقة للموظف ليقرأها الأخير وهو يهز رأسه موافقا .

المشــــهد

كنا مضطرين للتوقف والانتظار ، اذ باغتتنا اشارة المرور بعينها الكبيرة الحمراء ، وراحت تعوى بعنف ، وهكذا تحققت من ضخامة الجنازة عن كثب ، بعدما تقاطر المشيعون عند المزلقان . وبدا واضــحا مدى التزاحم فى ذلك الحيز المحدود من ســكة القطـــار .

كان حمــلة ســلات الورد الكبيرة ، والموشحة بالشرائط البنفســجية فى مقدمة الجميع . لذلك فقد توقفوا أولا مســندين سلاتهم الى الأرض ، ليتخففوا من عبء حملها قليلا ، أما النعش الجاثم بثقله على أعناق من خلفهم فقد كان فاخرا جدا ، وقد تسربل بغطاء من الأزرق الساتانى الداكن ، الذى راح يسكب لمعانا بألوان رقاب الحمام ، المتدرجة المتداخلة تحت شمس صيفية فاضحة .

تنهدت وأنا أتابع متلذذا انكسارات النور وألاعيبه الفاتنة . فكرت فى كل هذا الاحتشاد حولى ، والذاكرة تواتينى من مخزونها القديم المهمل بمثل فرنسى عن شيئين لا يمكن اخفاؤهما : زنا الفقير ، وجنازة الغنى . بعد قليل من الوقت ، بدا الجمع متبرما لهذه الوقفة التى لم يحسب حسابها . أخذ البعض يتململ فى مطرحه ، بينما انشغل آخرون بهمس سريع ، تخلله اشعال السجائر بدا حملة

النعش لى أكثر ضيقا من غيرهم وهم يبدلون مراكز الاتكاء على أقدامهم ، وينقلون صندوق الميت من كتف الى أخرى ٠

رفعت بصرى عنهم ، لألتفت الى الواقف بجوارى ، عندما زفر بحرارة فجأة ، وقد أخذ صرير عجلات القطار الحديدية ، يتمدد ويزحف الى الآذان ، بطيئا ، رتيبا ، ثقيلا ، ثم قال لى بنفاد صبر وقلق : ياه ٠٠ بضاعة ٠ فهززت رأسى مؤمنا على ما قاله ، ولم أرد ، اذ كنت قد بدأت أفكر فى عبثية موقفى خلال هذه اللحظات ، فما معنى مشاركتى فى جنازة رجل لا أحمل له أى شعور غير الكراهية ؟، لقد جئت للمشاركة فى هذا المشهد مدفوعا بما يمليه الواجب ، وتفرضه الأصول ، وحتى لا يأكل أحد وجهى ــ مثلما كان ينصحنى أبى دائما ــ ولكن أى واجب هذا ؟ ، وأية أصول تلك التى تجبرنى على السير فى جنازة نذل بالاجماع ، ولص لا يختلف عليه اثنان فى المؤسسة الشعبية للطباعة ؟ ، لماذا أقف هنا الآن مع الواقفين لأشيع « عرفى حلاوة » ذاك الذى لاذمة له ولا ضمير ، الذى باع المؤسسة الشعبية ــ مؤسستنا ــ بأرخص الأثمان ، وألقى بها فى نار الخصخصة ، بعد أن صال وجال ، وسمسر وقبض ، بصفته رئيس مجلس ادارتها وأكبر رأس من الرؤوس المتحكمة فيها ؟

أدرك تماما أن جل هذا الحشد الرهيب من عمال وموظفى المؤسسة يكرهونه مثلى تماما ٠ بل ان بعضهم كان مستعدا لو واتته الفرصة ذات يوم ــ لقتله ، أو خنقه بيديه ليقتص منه قبل أن يموت ميتة ربه ، فكل واحد منهم ذاق ولابد سطوة « عرفى حلاوة » المرة ، وهيمنته وتحكمه فى رقاب العباد ٠ أما أنا فأمقته ، ليس فقط بسبب مفاسده المهنية وجرائمه فى المؤسسة ، ولكن مقتى له خاص جدا ، فهو المسؤول المباشر عن نقلى من قطاع الصيانة الى قسم العلاقات العامة ، بالأحرى هو قتلنى بالحياة ، وبجرة من قلمه الأسود ٠ فأنا

مهندس ميكانيكي ناجح · هوايتي الحقيقية في الدنيـــا هي فك وتركيب الآلات · وقد كنت طوال فترة عملي في قسم الصيانة قادرا على اصلاح أصعب الآلات وأعقدها ، كنت ألهو بها كما يلهو طفل صغير بلعبته · ولكن «عرفي حلاوة» أبعدني عن عالمي الأثير ، ووضعني على الرف بعيدا في قسم العلاقات العامة · كعبوة معافة من الجبن الفاسد في محل بقالة · لأنه في الحقيقة لم يكن راغبا في اصلاح أية ماكينة ، حتى يبيض ويصفر ، ويبيع الآلات الممكن تشغيلها واصـــلاحها على سبيل الخردة · ويكسب من وراء ذلك ذهبا·لكن ماذا حملت معك الى الآخرة من كل ذلك ياعرفي حلاوة؟· ماذا حملت معك من كل هذه الأموال الحرام المسروقة ؟ · أنت لم تأخذ منها شيئا الى الآخرة ، لكنك حصلت والى الأبد على كل الكراهية ، وكل المقت من الجميع ، هذا ما حملته معك في النهاية حقا ، حتى بعد أن تزول وتتبدد وتتحول الى حفنة من الرماد وتنتفي جثتك السمينة المترهلة ، التي طالما طالعناها تحمل سحنتك الكريهة ، وهي تطل علينا في المؤسسة كل يوم ·

تنهدت بأسى ، ورحت أشاغل روحي الممرورة بالنظر الى طليعة الجنازة الواقفة تنتظر مرور القطار ، مثلمـــا تنتظر نحن الواقفون قرب المؤخرة · كان الرجال ذوي بزات داكنة أنيقة ووجوه مفعمة بالحيوية ، تبدو عليها دلائل الخيرات والنعم · جلت ببصري على الذين أنا بينهم ، كانت ملابسهم متواضعة ، جرى ارتداؤها كيفما اتفق ، وبدت لي ملامحهم متشابهة الى حد بعيد · اكتشفت أن بعضهم منشغل بالتفرس في نساء المقدمة ، نقلت ناظري الى حيث يتطلعون · ميزت زوجة المتوفي بين جماعة النسوة المتكومة الى أقصى اليمين ، بدت لي على البعد أكبر قليلا ، وهي متشحة بالسواد، فكرت أن المتطلعين اليها مثلي ، ربما كانوا يفكرون فيها خلال هذه

اللحظات كواحدة من الامتيازات الأساسية التى يحصلها المرء عندما يكون رئيسا لمجلس ادارة مؤسسة كبرى كمؤسسة الطباعة الشعبية ، ولكن أين هى منه الآن ؟ ، وأين هو من أى امتياز دنيوى آخر طالما نهل منه وتمتع به ذات يوم ؟ • فكرت : ان الموت يشابه هذا القطار العابر الآن ، فهو عندما يجيء ويعبر لا يملك الانسان الا التوقف والامتثال له • انه هو وحده ، لا الحياة ، القادر على تحديد القيمة الحقيقية للبشر •

بدأت القاطرة تسرد عرباتها أمامنا سردا طويلا مملا ، تنحنح البعض ، وحاول آخرون سعالا مفتعلا يائسا ، ربما كنوع من الاحتجاج الفاشل على جبروت القطار ، أما أنا فبدأ ضيقى بمصنع الغاز الطبيعى الواقف الى جوارى يزداد ، بعد أن طالت فترة التشغيل واطلاق النواتج • حاولت الابتعاد عنه قليلا وأنا أقول لنفسى : آه لو يكف العمال عن تناول الفول وكميات البصل الرهيبة فى الصباح ؟ • أخذت أتحسس أنفى وأتنهد محوقلا ، وكنت قد فكرت فى الانسحاب من المكان كله الى الخلف ، لكن المكان كان مكتظا على نحو لا يمكن تصوره •

شعرت بعطش وجفاف فى الحلق وقلت لروحى : حتى جنازتك ياعرفى حلاوة ثقيلة على القلب كما السم ، الى آخر لحظة فى الدنيا وأنت مصر على مضايقتنا وقرفنا ، أكان يجب أن تزهق روحك وتموت فى هذا اليوم الحار من أغسطس الخانق الرطب ، أكان لابد أن نسير وراءك بكل هذا العرق اللزج المنساب منا ، تحت آتون الشمس ، وقد ترصدنا من علياءه وراح يشوى أدمغتنا ، وأقفيتنا ؟• حاولت مواساة نفسى ، فقلت : اشغل روحك يا ولد بأى شيء ؟ دقائق ويعبر القطار الى حال سبيله ، ونصل بعدها الى الجامع ، فنصلى على الميت ونروح لحال سبيلنا نحن أيضا •

بدأت فى عد عربات القطار ، مراقبا حركة انسياب العجلات على الشريط الحديدى ، لكن سرعان ما انقطع استغراقى ، اذ برزت من جانب الطريق جنازة أخرى ، بدأت تتقدم فى اتجاه جنازتنا عند المزلقان ، وكان من الواضح أن مقصدها هو مقصد جنازتنا ذاته . الجامع القريب فى الضفة الأخرى من مجرى القطار ، حيث الصلاة على الميت صـلاة الشـفاعة والرحمة قبل الذهـاب به الى مثواه الأزلى .

كان النعش القادم بسيطا متواضعا للغاية ، فصندوق الميت من خشب قديم ردىء الصنع ، لم يفلح اللحاف القطنى البالى المفرود عليه فى تغطيته تماما ، وكان المشهد مشكلا من أناس قلائل يصعب التكهن بحقيقتهم ، هل هم عمال حرفيون ؟ ، أم باعة جائلون ؟ . وخلف الرجال تسير جماعة من النساء ينتحبن فى صخب ، وراء أولئك الحاملين للميت . بدا المشهد كله أقرب الى مهزلة ، تؤدى على خشبة مسرح ، منه الى جنازة فعلية يسير فيها رجال ونساء حقيقيون ، وربما جاءتنى هذه الفكرة ، من ذلك التعبير الذى طالعته على وجوه أعضاء جنازتنا ، وقد استداروا ليستجلوا حقيقة الأمر ، اذ كانت وجوههم تفصح عن تساؤل استيائى ، استنكارى ، وكأن القادمين بجنازتهم البائسة ، قد استباحوا لهم حرمة ، أو غصبوا منهم امتيازا مقصورا عليهم فقط .

همس صاحب مصنع الغاز الطبيعى قائلا : يظهر لى أنهم جماعة من المقطوعين ، لا اله الا الله يا أخى .

غمغمت زافرا ، وأنا أؤمن برأسى ، وقـلت : آه . ورحت أنظر الى المقطوعين أولئك ، كانوا بدورهم يتأملون موكبنا بكثير من

الدهشة والانبهار حتى أن النسوة توقفن عن الصراخ والنشيج ، وأرسلن أبصارهن ناحيتنا بتعجب · كانت نظراتهم الدهشة ، المستغربة ، تشى بتساؤل آخر عن موتهم وموتنا الذى فاجأهم مظهره من حيث لا يدرون ·

ظل القطار يتهاوى على قضبانه بكامل راحته ، وئيدا ، داهسا الوقت / وقتنا باستبداد يغيظ ، وبعد الصناديق البنية الحديدية الضـــخمة التى عبرت فى البداية ، جاء دور الدبابات والعربات المصفحة ، والمدافع المحمولة على عجلات ·

ظل الناس يوزعون اهتمامهم على القطار حينا ، وعلى بعضهم حينا آخر ، وكان هناك ما يشبه الشعور بالاثارة الخفية المشوبة بالتحدى ، يرتسم على الوجوه الآن ، وجدتنى أسائل نفسى وأبتسم : ترى : هل سنصلى على الميتين معـــا ، أم سينتظر اللاحقـــون السابقون ؟ ، وأظن أن الواقف الى جوارى كان يفكر فى ذلك أيضا خلال تلك اللحظات ، فعندما التفت اليه ، وجدته مطرقا الى الأرض وقد غاب فى تفكير عميق ·

فى هدوء ، ولسبب ما ، انسل واحد من المشيعين فى مؤخرة جنازتنا فجـــأة ، ووقف بين ناس الجنـــازة الأخرى فى صمت ملتحقا بها ·

بدا لى سلوكه ـ وان جاء تلقائيا ـ غامضا بعض الشيء ، قلت لنفسى ، تعاطف ، شفقة ، أو ربما محاولة يائسة لكسر الملل حتى يعبر قطار الحرب الطويل · رجحت أخيرا أن قرب موقعه من الجنازة الأخرى ، هو الدافع وراء مسلكه هذا · على أية حال لم يبد أحد من أصحاب الجنازة الصغرى أى رد فعل تجاه وجود الرجل بينهم

على هذا النحو المفاجئ ، بل وبدا لى هو نفسه ، بملبسه ، وشكله ، والتعبير الغاضب الصارم المرتسم على وجهه ، وكأنه واحد منهم ، جاء منذ البداية معهم ، ومازال معهم ينتظر عبور القطار ·

لم تمر لحظات أخرى قليلة ، الا وكان رجل آخر قد انشق عن جنازتنا والتحق بزميله السابق · وهكذا بدأت مؤخرة جنازتنا تشهد تسربا خفيا ، سرعان ما تحول الى هروب جماعى ملموس ، بدا لى أشبه بلعبة قديمة كنا نلعبها أيام المدرسة ، فعندما كانوا يحشدوننا فى الفناء الواسع ، بمناسبة ما من المناسبات الحكومية ، ويبدأون فى القاء الخطب السياسية الدعائية المملة علينا ، كنـا نسلى أنفسنا نحن الواقفين فى مؤخرات الطوابير ، فننتقل من طابور الى آخر ، بينما الخطباء ســادرون فى خطبهم ومواعظهم السقيمة ، وكان الأمر يتمخض فى النهاية عن طابور طويل واحد فى جانب من الفناء يصيب الجالسين على المنصة بالارتباك والضيق ؛ ويدفع مشرفى النظام العام فى المدرسة الى نهرنا ، وتهديدنا بالضرب، حتى نرعوى ونعود الى طوابيرنا الأولى مرة أخرى ·

تذكرت ذلك وأنا أرقب الثغرات التى تنفتح وتكبر وتتسع فى مؤخرة جنازتنا لتملأ فراغ الجنازة الأخرى ، حتى أن مصنع الغاز ، تركنى فجأة وحيدا ، وظهر بالقرب من النائحات فى الجنازة الصغرى ، والتى ماعادت صغرى الآن ·

شعرت بدرجة من القلق والتوتر ، اذ بدا لى الفراغ حولى أشبه بهوة انزلقت فى داخلها رغما عنى ، ووجدتنى أدخل خيمة من الغربة الغامضة ، واعترانى ذلك الشعور الموحش بالضياع ، الذى يلتهمنى عادة فى كوابيس ليلية ، تعاودنى بين الحين والحين ، فأرى نفسى فيما يرى النائم ، وقد سرت وسط زحام الناس فى الطريق

عاريا حافيا ، بلا هدوم تغطينى وتستر عورتى ، أو نعل أنتعله كما الآخرين ٠

حاولت الاقتراب بنفسى ، لأنضم لأهل المقدمة فى جنازتنا ، لكننى لم أستطع ، شيء ما كان يباعد بينى وبينهم ، بالأحرى خفت أن أقترب منهم ، اذ ظننت أننى لابد سأكون بملبسى وشكلى بينهم ، كدجاجة ريفية اندست داخل مجموعة من الطواويس ٠ توقفت حائرا أتلفت حولى فى يأس ، اصطدمت عيناى بعيون الآخرين الذين غادرونى الى الجنازة الأخرى ، شعرت أن نظراتهم تشـــجعنى ، تحفزنى ، تســـتحثنى ، ووجدتنى أرتبك قليلا وأنا أزدرد ريقى الجاف ، لكننى فى النهاية وجدت قدمى تتحركان ببطء نحوهم ٠

قمر ينظـر اليـه

بدت السماء فسيحة رائقة فى تلك الليلة الصيفية الحـارة حتى يظن ان اتساعها يحتمل ويتقبل أكثر من قمر ، لكن لما كان للأرض قمر واحد يدور حولها ، فقد استأثر بذلك الفضاء المترامى الغامض ، وبدا فى عليائه كدرة مبهرة صعبة المنال ، تضىء وتشع كينبوع ضياء لا يدرك منتهاه .

وهكذا لم تستطع بنايات المدينة العالية ، المكللة بمهرجـان الأضواء ، ولا ضجيج السيارات المتدفقة على الكبارى ، الحيلولة بين القمر وبين تلك الأنظار المتطلعة الى طبق البلور الأشهـب العجيب ، وكانت الزوجة الشابة أول من لاحظ هلتـه وطلوعـه فقالت :

— قمر يجنن .

راحوا جميعا يتأملون الابهار العالى المنير للبادر ، وهمس ذلك الذى تمنى البوح بوجده لمن باحت بجنون القمر وهو يزفر قائلا :

— فى بالى شبيه له على الأرض .

رشفت الشابة رشفة من كوب الماء الموضوع أمامها على الطاولة ، وأشاحت بعينيها بعيدا ، لتراقب سريان مياه النهر ، قريبا من مجلسهم فى المطعم الليلى الفخيم ، بينما هل عليهم طفل صغير حاملا بيده عقودا من الفل الأبيض الشاهى ، عرض عليهم بضاعته بتوسل ورجاء ، نظر إليه بعضهم بلا مبالاة ، بينما آثر البقية مواصلة سيرة القمر ، وكأن الصغير بلا وجود ، فقال الشاعر بينهم ، وقد ظل مشرئبا برقبته يتطلع الى السماء ، وقد جاشت فى جوانحه ، نشوة ملتذة وفيضان من الشعور :

ـ أفيض من نور ؟ أم آية من لجين ؟

آثر الطفل الانسحاب قليلا والوقوف فى الركن غير بعيد عن مجلسهم ، على أمل ان يتحين فرصة مناسبة فيبيع لهم مرة أخرى ، اذ كان يحلم بقروش ينهى بها جولته المسائية ليذهب بعدها وينام ، وهكذا تسنى له أن يسمع الزوجة العجوز ، وهى تعلن بسعادة غامرة ، بعد أن تذكرت جهودها الناجحة فى استعادة زوجها الى حظيرة الزوجية اثر فشله فى مغامرة عاطفية سريعة قبل وقت قريب :

ـ الحقيقة ، أنا أحب القمر عندما يكون هلالا ، لأنه يذكرنى دوما بالمرة الأولى التى خرجت فيها مع زوجى ، عندما كنا مخطوبين ، كان ذلك ذات مساء ، فى مطعم صغير قريب من صحراء مصر الجديدة ، قبل أن تزدحم تلك الضاحية بالبنايات ، ويلتهم الاسمنت صحراءها ، وقتها كنا مازلنا شابين مخطوبين ، فرحنا نتطلع من الشباك القريب لجلستنا ، ففاجأنا الهلال كعروس فاتنة

فى زفة من النجمات ، وغمرنا فيض من شعور جارف وتعاهدنا على الوفاء ، طالما بقينا زوجين فى هذه الدنيا . راحت تضحك مقهقهة ، وكأنها حكت طرفة تدعو الى المرح والسرور ، او كأنها تستدعى لنفسها ذكرى قديمة لم تغب .

أخذ الولد يعيد ترتيب عقود الفل على ساعده اللـــين ، وفكر : آه لو أبيع أثنين او ثلاثة ، آكل بعدها شيئا سريعا ثم أذهب الى أمى فأنام .

فتح فمه تثاءب ، بينما صورة فراش طرى تروح وتجىء فى مخيلته ، وربما لهذا ، لم يتسن له ملاحظة وجه السيدة البدينة المكفهر ، وهى تسدد نظرات متبرمة الى زوجها القائل :

ــ أما أنا فلاعشق لى بالقمر ، الا عندما يستوى ويكتمـــل ، فيكون بدرا ، وكأنه امرأة جميلة فى أوج نضجها ونضرتها ، فيهتف هاتف من داخل المرء عندما يطالعه ، يلح عليه ويدعوه : الآن . . الآن ، وإلا لن يكون ابداً ، فالبدر هو منتهى الكمـــال ، وشـــارة بالغة فى معنى الزمان ، ودعوة للنهل من لذائذ الحياة .

زفرت عروس لم يحل الحول عليها بعد ، كانت قد فقـــدت جنينها منذ شهور قليلة فائتة ، بعد معاناة المخاض ، وقالت بصوته قطة حبيسة تموء :

ــ يأخذنى القمر كثيرا ، عندما يكون شاحبا حزينا ، وقـــد اكتسى بغلالة شفيفة من السحاب ، فيتبدى من بعده معتما مضيئا فى آن ، ويأخذنى بعيدا بعيدا ، فأفكر فى القدر المخبوء ، والسر المجهول ، ولعبة الأيام مع الحياة والعدم ، وأظل سارحة مـــع

تأملاتى ، وهو يختفى ويستبين من خلف غلالته السحابية وكأنه يفضفض لى بحكايات وحكايات عن هذا الكون العجيب الذى نعيش فيه .

كان الولد قد مل الوقوف ، فتردد قليلا ، قبل أن يقترب منهم طارحا عليهم فله مرة أخرى ، علهم يبتاعوا منه ولو عقدا واحدا ، وكان خلال ذلك يتثاءب بجد محاولا طرد النوم بعيدا عن مقلتيه ، بينما يهجس لروحه بأن أجمل الأقمار كلها ، ذلك الذى يكون رائعا فى السماء على هيئة نصف رغيف شهى خرج طازجا من بيت النار .

مائــدة الــرحمن

انكسرت الشمس ووزعت شعاعاتها أرجوانا راحلا فى الأفق ، فبدا له المشهد القاهرى باذخا صادما ، بعد أن خرج لتوه من محطة القطارات الرئيسية فى رمسيس ، وانفتح على ميدانها الصاخب الضاج ، بطرقه المحتشدة ، وسياراته المارقة ، وكل تلك البنايات العالية وذلك العرمرم البشرى الرائح الغادى دون انقطاع .

تناوبته مشاعر الفرح والفزع ، الذهول والرهبة ، اذن هو يونس جديد وهذا هو الحوت ، لكنه سيمضى فى الجوف الغامض المثير ، الى أبعد من أيام يونان الثلاثة ، وسيبقى فى تلك المدينة المعبودة التى طالما رغبها واشتاق لرؤيتها، وحلم مرارا بالحج إليها ، الآن لم يعد حجا ولا تقديسا ، اذ أن الحظ ناداه ، ليضع قدمه بها ويثبتها ، بعد أن استدعاه ابن عمه وسميه من أعماق قريته الجنوبية البعيدة ، ليجىء الى تلك المدينة ، فيكحت القصب وينضم بذلك الى الفريق العامل فى محل عصير جنة رضوان ، والمكون من صاحب المحل بلدياته المعلم « أخنوخ » وابن عمه « جرجس » وآخرين سيعرفهم عندما يصل اليهم ان شاء الله .

سار خطوات مبتعدا عن المحطة ، توقف ، دب يده فى الجيب السيال لجلبابه ثم أخرج الورقة المكتوب بها عنوان جنة رضوان .

استأنف المسير مرة أخرى ، بعد أن سأل مرة واثنتين وثلاثا ، وتيقن من اجماع جميع المسئولين بنسبة ٩٩٫٩٩٩٪ على أن الوصول للجنة إياها يوجب عليه الدخول اولا فى الشارع الكبير المسمى شارع شبرا ، ثم ترك أول وثانى وثالث محطة اتوبيس ، يعرّج بعدها يساراً وهناك يجدد السؤال ، فيحصد بعده الاجابة الشافية .

قبل أن يصل لمحطة الأتوبيس الثالثة ، استوقفه تفصيل صغير من لوحة الشارع الكبير ، كان مشهد ذلك التفصيل ، قد تكرر قبل ذلك عدة مرات ، طبليات عديدة مرصوصة على الأرض، صفت عليها صحون وأكواب المآكل والمشارب ، فكر فى المتحلقين حول تلك الموائد ، خمن ان المناسبة ربما كانت مأتم قاهرية ، لكن كان هناك الغروب ، وعشاء المآتم يكون عادة ساعة العشاء ، اذن ليست هذه موائد بذلت على شرف موتى ، كما انه لا تواكبها مظاهر الحزن والحداد . ود السؤال من باب الفضول ، لكنه تراجع بعد تفكير ، فهو لا يستطيع حسبان رد الفعل القاهرى فقد يخرق أذنه وقد لا يرضيه ، غير أن شهوة المعرفة أخذت تحسره وتحاصره، أو فلنقل مباشرة وبلغة المثقفين ، أن الظاهرة المآدبية فرضت نفسها عليه بعنف ، وشدته للفعل والحراك ، لذلك وكمدخل أولى، قرر تكرار السؤال عن جنة رضوان ، ومنه يتطرق الى حكاية الأكل فى السكك .

مال على واحد من المقرفصين امام المائدة ، فسأله وهو يمد له يده بورقة العنوان ، رد عليه الآخر بسرعة من فم واسع استولى على حصة الأسد من وجه ممصوص ، وقال فى تعجب يشوبه ضيق :

– طيب . ميل الأول وكل ، وبعدها اهم معسك واسأل نفر يدلنا · أو يدلك لحد هناك ·

تلكأ قليلا وهو راغب ، فلقد كان جائعا تعبا ، منهكا ، بسبب نفاد زوادة الفايش التى التهمها فى القطار بعد أن غمسها بالشاى ، وذلك الجهد الانفعالى الهائل المبذول فى استقباله للقاهرة لأول مرة فى حياته ، ثم كل ذلك السير فى شارع شبرا! لأجل جنة رضوان ، حسم الأمر ، وبرك على الأرض الى جانب الجالسين ، وما أن تعالى آذان المغرب من عدة مآذن ، حتى هجم على المائدة مع الهاجمين ، بعد أن شجعه مقترح الدعوة المسئول بقوله :

– مد يدك طوالى ، بسم الله .

وزع نشاطه بين التهام الأرز والطبيخ والمخلل ، تأمل الجالسين حوله ، بدوا له دون أية علامات فارقة ملحوظة ، سواء من حيث الشكل او اللبس ، وجوه كوجهه تقريبا ، ذلك السمار ، ذلك الاصفرار ، تلك العيون المكتحلة بالهم واليأس ، تلك الجلابيب ، أو السراويل المحتوية أجسادا لا حول ولا قوة لها ، آثر الا يتحدث أو يسأل ، رغم فضوله ورغبته فى الكلام والمسايرة أثناء الأكل ، فهذه متعة لا تدانيها متعة ، سوى تدخين سيجارة فى الفراش بعد أداء واجباته العائلية فى الليل ، لكنه آثر التمسك بحكمة ابن عمه الذى نصحه بها قبل ان يهبط هذه المدينة : « لما تكون فى مصر ، اقصر الكلام ، يعنى كلمة ورد غطاها والسلام » .

وهكذا راح يزدرد طعامه صامتا على مضض ، لكن سرعان ما دفعه الداعى للوليمة ، والذى جلس بجانبه الى خرق ناموس

ابن العم العزيز الحكيم . فاضطر للكلام والرد ، بعد ان سأله الرجل عن أصله وفصله ، وأوله من آخره ، وبعد أن أجاب ، وكرد فعل سريع لذلك ، قدم له الرجل بطاقة تعريف شفاهية سريعة وهو يقول :

ــ أنا الآخر من بحرى ، من نواحى كفر الزيات ، أرزقى على باب الله ، يوم شغل وعشرة من غير ، وكل رمضان أقول لروحى انزل يا ولد يا محمود وبر نفسك فى مصر ، لأن رمضان فيها رزقه واسع وخيره عامم . طب ، تصدق وتؤمن : من أوله لحد الآن ، صار اكلى كل يوم فى مطرح شكل ، عموما الحمد لله .

بدت الفرصة مواتية له فى هذه اللحظة فسأل :

ــ يعنى كل يوم فى رمضان ، والموائد عمالة وقت المغرب ؟
رد محمود بلهجة العارف :

ــ أى نعم ، يا أخى الميسورين ياما هنا ، لكن الغلابة أكثر وفى كل ناحية من البلد تلقى الأكل وقت المغرب ، والموائد محطوطة لكل من هب ودب فى سبيل الله ، لذلك اسمها موائد الرحمن .

ــ آه ..

قال وواصل مضغ ما فى فمه .

لم يمض وقت طويل ، الا وكانت الموائد قد فرغت تقريبا مما عليها ، عندئذ ، صاح رجل جالس على رأس المائدة ، بدا مختلفا عن الآخرين فى شكله وملبسه ، وقال بلهجة تشبه الأمر :

ـــ هموا يا اخوان ، وخلونا نخطف صلاة المغرب جماعة ، قبل ما يكبَر العشاء ، يعنى خلصوا وهموا للوضوء فى الزاوية .

أسقط فى يده ، كيف سيصلى المغرب معهم وهو تبدلى . شعر بمغبة تهوره وتسرعه فى الجلوس والأكل ، بدأ يشعر بالحرج والندم ، فماذا سيفعل الآن ؟ هل ينسل فى هدوء دون أن يشعر به أحد ؟ أو يتذرع بأية حجة لذلك المحمود ويمضى فى سبيله ؟ سيقول له مثلا أنه سيصلى فيما بعد ، فهو يخشى الوصـــول الى جنـــة رضوان متأخرا فلا يجد ابن عمه المنشود ، حاول ترتيب حكاية مقبولة ، تحفظ له ماء وجهه الشحيح أصلا ، بدأ فى التنحنح أولا ، حتى يفسح المجال لكلامه المفتعل ، لكن محمود أوقف بدايته التى لم تبدأ ، وقال وهو يمضغ متلذذا قطعة تمر مبلولـــة ، نجـــح فى اصطيادها باصبعه من قعر كوب نقيع التمر الذى أجهز عليه منذ لحظات :

اسمع ، أنا شوفى أننا نترك حكاية صلاة المغرب ، ونقوم ننهض لنسأل عن مكان جنة رضوان ، أنا مستعد أدليك بنفسى لحد هناك .

وافق جرجس بسرعة ودون أية شروط ، لكنه تساءل فى خجل وهو يشير الى الرجل والجالسين :

ـــ لكن .. الرجل .. والناس ؟

ضحك محمود وقال وهو يرفع طاقيته عن رأسه قليـــلا ويهرش قفاه :

ـــ الله ، وهو ماله بصلاتنا ، هل هو ولى أمرنا ، ثم أن

الرجل كلف نفسه بالأكل لأجل ينوبه الثواب ، وبصراحة أنت وانا عملنا ما علينا ونولناه الثواب .. هاها .. ها .

ابتسم بدوره ، هب واقفا بمجرد أن وقف محمود ، سارا مبتعدين عن المكان ، سأل محمود له عن العنوان ، فحصل من الاجابة على الإجماع ، إذ بات من المؤكد أن جنة رضوان فى مكان جنة رضوان المعروف له من قبل .

أخرج محمود سيجارتين ، قدم واحدة له ودس الأخرى بين شفتيه ، شعر جرجس وهو يسحب نفسا عميقا من السيجارة بعد اشعالها بتلذذ عميق ، قال فجأة لرفيقه :

ــ بالمناسبة ، انا اسمى جرجس !

نكس محمود أذنه اليمنى بشاهده ، تثاءب بملل ، بدا غير مكترث بما سمعه وهو يقول :

ــ تشرفنا يا عم جرجس ! .

الفهـــــــرس

الموضـــوع | **الصفحة**

الموضـــوع	الصـــفحة

صدر من هذه السلسلة

● اربعة فصول شتاء	(قصص)	محفوظ عبد الرحمن	١٨
● انا الملك جئت	(قصص)	بهاء طاهر	١٩
● تاريخ حياة صنم	(قصص)	عبد الرحمن فهمى	٢٠
● الوداع : تاج من العشب	(قصص)	عبده جبير	٢١
● النجوم العالية	(اقاصيص)	محمود الوردانى	٢٢
● قلوب خالية	(رواية)	عبد الرحمن الشرقاوى	٢٣
● الشجرة والعصافير	(قصص)	ابراهيم عبد المجيد	٢٤
● عطشان يا صبايا	(قصص)	سليمان فياض	٢٥
● طرف من خبر الآخرة	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	٢٦
● طعم القرنفل	(قصص)	جار النبى الحلو	٢٧
● السهر الاسود	(رواية)	شفيق مقار	٢٨
● تسلق الجدار الأملس	(رواية)	حسنى عبد الفضيل	٢٩
● احتضار قط عجوز	(قصص)	محمد المنسى قنديل	٣٠
● رحلة الليل	(قصص)	عبد الله خيرت	٣١
● حبات النفثالين	(رواية)	عالية ممدوح	٣٢
● ارض لا تنبت الزهور	(مسرحية)	محمود دياب	٣٣
● الخوف	(قصص)	عبد الفتاح الجمل	٣٤
● ما اجهلنا	(مسرحيتان)	محفوظ عبد الرحمن	٣٥
● لم يعد الضحك ممكنا	(قصص)	يوسف القعيد	٣٦
● جبال السام	(قصص)	فاروق خورشيد	٣٧
● الفنان الصيفى	(قصص)	احمد الشيخ	٣٨

يوسف والرداء	(قصص)	ابراهيم اصلان	٣٩
مسألة ابنى	(قصص)	يحيى عبد الله	٤٠
عكس الريح	(قصص)	يوسف ابو رية	٤١
هـــل	(قصص)	محمد جبريل	٤٢
عفاريت الجبانة	(مسرحية)	نعمان عاشور	٤٣
الشـاطر والنهر	(قصص)	خالد خصبك	٤٤
زهـر الليمون	(قصص)	علاء الديب	٤٥
الحلواهين	(قصص)	امين ريـان	٤٦
رائحة البحر	(رواية)	سـامى فريد	٤٧
حضرة صاحب الدولة	(مسرحية)	عاطف الغمرى	٤٨
اسباب للكى بالنار	(قصص)	خيرى شلبى	٤٩
السين والطلسم	(قصص شعرى)	بدر الديب	٥٠
ايام الانسان السبعة	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	٥١
الملاك الأبيض	(قصص)	محمد زفزاف	٥٢
هذا ما كان	(قصص)	محمد البساطى	٥٣
الغرف الاخرى	(رواية)	جبرا ابراهيم جبرا	٥٤
اغنية شبه حزينة	(قصص)	طلعت فهمى	٥٥
انكسار الحروف	(قصص)	ربيع الصبروت	٥٦
اخبار الدراويش	(رواية)	عبد الوهاب الأسوانى	٥٧
الليـل والغضـب	(قصص)	فتحى عبد الفتاح	٥٨
الشيء	(رواية)	نهاد شريف	٥٩

الغيوم ومنابت الشجر	رواية	عبد العزيز مشرى	٦٠
الصخرة والطريق	مسرحيات)	فؤاد التكرلى	٦١
اوردسان ابيشان	(قصص)	نعيم عطية	٦٢
مستان التورة	(قصص)	سعيد الكفراوى	٦٣
الوجه الآخر للقمر	(قصص)	مجيد سليمان	٦٤
مســافر	(قصص)	محمد المخزنجى	٦٥
رجال من الرف العالى	(قصص)	سليمان الشطى	٦٦
رأيت النخل	(قصص)	رضوى عاشور	٦٧
ليلة حب مجنونة	(قصص)	ليـلى العثمان	٦٨
المستحيل والقيمة (تجربة في الديالكتيك)		بدر الديب	٦٩
النعيم العائم	(مسرحية)	توفيق الحكيم	٧٠
شمس ببغداد	(قصص)	محمد عبد السلام العمرى	٧١
ديوان الملحقات	(قصص)	عبد الحكيم قاسم	٧٢
شتاء داخلى	(قصص)	احمد زغلول الشيطى	٧٣
حكاية شارعنا	(رواية)	وجيــه الشربتلى	٧٤
الدكان صغير	(قصص)	فهــد العتيــق	٧٥
منحنى النهر	(قصص)	محمد البســاطى	٧٦
انعشق ازله القرى	(قصص)	ابراهيم فهمى	٧٧
اغــلاق النوافذ	(قصص)	ابراهيم عبد المجيد	٧٨
اجنحة الحصان	(قصص)	هــالة البدرى	٧٩

● دولة ايوب (مسرحية) محمد حسيب القاضى ١٢٩
● حيرة الفرعون (قصص) عبد المنعم عبد القادر ١٣٠
● نونة الشعنونة (قصص) سلوى بكر ١٣١

الأعـــداد القـــادمة

● القافر صغيرة جدا (قصص) فهد العتيق
● عقيلة (م. شعرية) بيرم التونسى
● الأيام السعيدة (قصص) نعيم عطية

الأعـــداد الممتـــازة

● المعذبون فى الأرض (رواية) طه حسين
● قنطرة الذى كفر (رواية) مصطفى مشرفة
● خيوط العنكبوت (رواية) ابراهيم عبد القـادر المازنى
● ابراهيم الثـانى (رواية) ابراهيم عبد القـادر المازنى
● نائب عزرائيل (رواية) يوسـف السـباعى
● فسـاد الأمكنة (رواية) صبرى موسى
● قصص مختارة (قصص) يوسف ادريس
● اغنية الرياح الأربع (دراما شعرية) على محمود طه
● اضـلاع الصحراء (قصص) ادوار الخراط

تطلب كتب هذه السلسلة من :

● باعة الصحف ● مكتبات الهيئة
● معارض الكتاب بداخل مصر والخـارج
● المعرض الدائم للكتاب
● مكتبات الهيئة المتنقلة بالأحياء والأقاليم

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٩/٤٩٣٥

ISBN — 977 — 01 — 6111 — X

نادرة هى الكتابات «اللصصية» فى زماننا التى تستطيع أن تكون «حضوراً» فى الحياة و«فعلاً» فى الواقع وأن تكون فى الوقت ذاته تتفوق على مقامات «الكتابة» مثلما نجد فى كتابات سلوى بكر - ونصوصها اللصيرة بوجه خاص.

هنا سوف نلتقى بشخوص (شخصيات؟!) ثلاثية الأبعاد، يمكنك أن تمد أصابعك وأن تتحسس لحمها الخام وأن تشم رائحتها وأن تشعر بحضورها يزاحم الهواء والضوء أمامك؛ وسوف تلتقى بالمعنى أو بالمعانى «محمولاً» على صدر الحياة الشخصية المتجسدة بشراً أو مواقف أو تأملات؛ تماماً مثلما سوف تلتقى بالكتابة من فوق منصة الماضى المكتمل (يلخصها الفعل الناقص: كان)؛ أو ستلتقى بالكتابة تطل عليك من على الحالة الفاصلة بين «الآن» وبين ما يوشك أن ينهمر علينا من الزمن القادم أو من الحضور «الآتى» يجسده الفعل المضارع القائم دائماً كأنما الوجود «مصدر» مستمر يتخلق من فوره، أمام عينيك على الدوام!

نختار هذه النصوص اللصيرة من سلوى بكر لكى نعيد اكتشاف ما عشناه فى الواقع، وفى الكتابة!